د. عبدالله سرور
عبد الناصر
فى الشعر العربى الحديث
دار الجميل
للنشر والتوزيع والاعلام
ش.م.م
AL GAMIL
Publishing, Distribution and Media

عبد الناصر

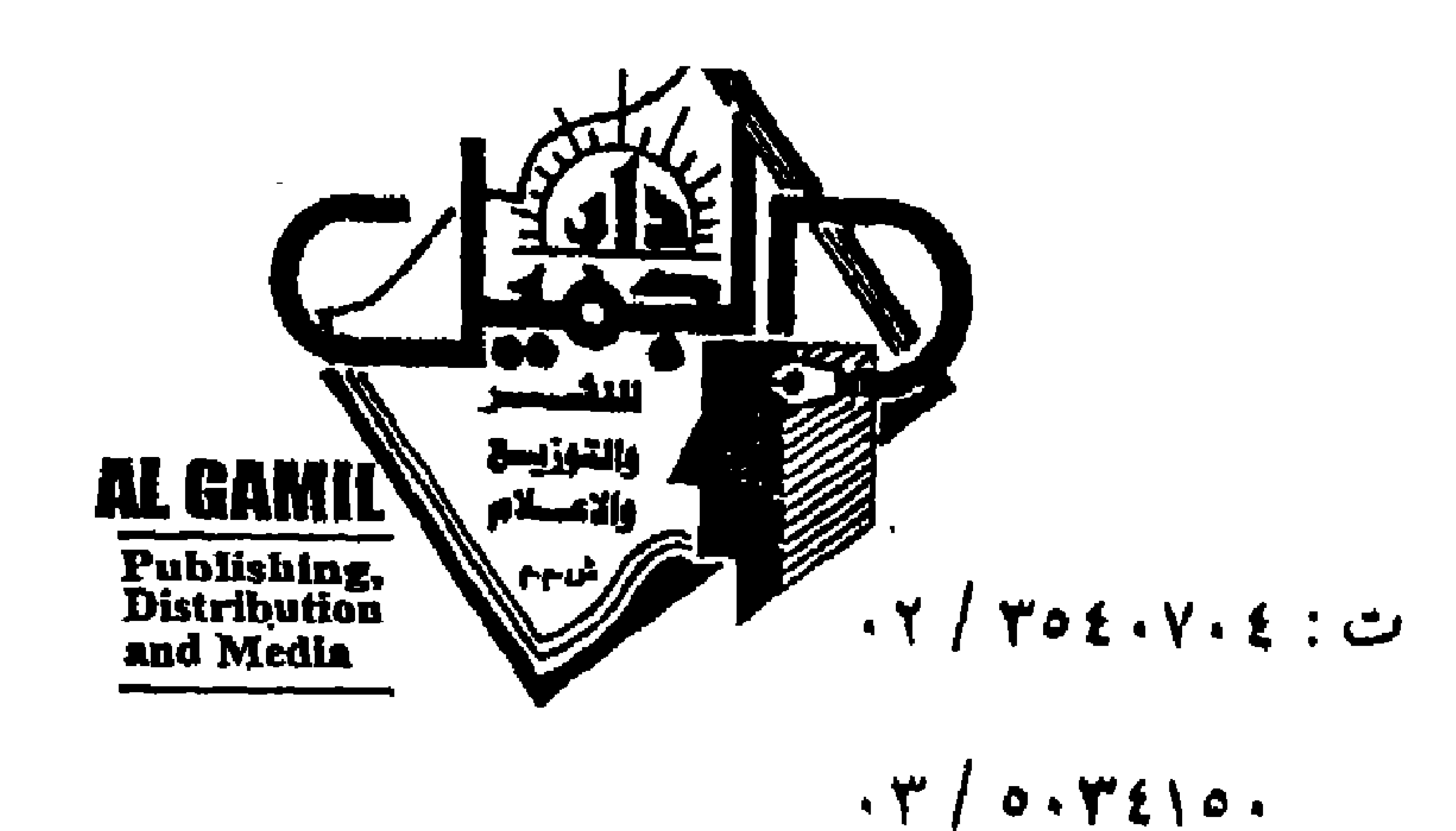
فى الشعر العربى الحديث

عبد الناصر

في الشعر العربي الحديث

الدكتور

عبد الله سرور



ت : ٠٢ / ٣٥٤٠٧٠٤

٠٣ / ٥٠٣٤١٥٠

- الغلاف الخارجى تصميم الفنان جرجس بخيت.

- المؤلف :

الدكتور / عبد الله سرور

أستاذ النقد والأدب الحديث المساعد

قسم اللغة العربية - كلية التربية

جامعة الإسكندرية

- الناشر :

دار الجميل للنشر والتوزيع والدعاية

ت : ٣٥٤٠٧٠٤ / ٠٢ القاهرة

٥٠٣٤١٥٠ / ٠٣ الإسكندرية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهـــداء

إلى ابنتى شاهيناز ...

وإلى كل زهور النقاء الثورى فى عصر العولمة

أقدم صورة ....

تضىء النفس بالعزة، وتملأ القلب بالكبرياء.

بسم الله الرحمن الرحيم



الزعيم الخالد جمال عبد الناصر

تقديـم

لم يكن عبد الناصر فى حياتنا حاكمًا أتى ثم مضى كما فعل غيره. و لم يكن فاعل أحداث وصانع إنجازات فقط، لكن عبد الناصر نجح فى أن يحفر لنفسه مكانًا خاصًا داخل عقولنا وقلوبنا جميعًا، سواء من اتفق معه أو اختلف. ومن ثم يمكن القول فى اطمئنان إن التاريخ العربى الحديث لم يعرف زعامة شغلت قلوب الجماهير وسكنت وجداناتها وحظيت بحبها مثل جمال عبد الناصر الذى قدم نموذجًا فريدًا لزعامة تاريخية فذة، ملأت الدنيا وشغلت الناس واختلفت حولها الآراء وستظل تختلف إلى أمد طويل.

وهذا الكتاب يعرض شتى نظرات الشعراء إلى عبد الناصر، ومختلف مواقفهم منه. ولذا فهو يعرض رؤية الناس لشخصية عبد الناصر فى كل جوانبها العامة. فقد أفرط الشعراء فى رسم ملامح وتفاصيل الشخصية الأسطورية للزعيم إلى حد بعيد يكاد يتصل بالخرافات، ويبتعد عن منطق العقل. لكن هذا التزيد والإفراط لا ينفى حقائق الواقع وجملتها أن عبد الناصر قد أحبته الجماهير وتعلقت به على نحو أسطورى.

ولقد روى عبد الناصر بمواقفه الثورية عطش الجماهير إلى الثورة ضد كل مظاهر الكبت والتخلف والحرمان، فصارت الثورة حديث الشعر. أما شخص الثائر عبد الناصر فقد غدا النموذج والمثال.

وقد اختلف مع عبد الناصر قطاع من جماهير الشعب، ولم يكن سبب الاختلاف واحدًا، بل غير واحد، وأيضًا لم تقع القطيعة التى بلغت حد العداء بين الأطراف فى وقت واحد، وإن كانت قد تجسدت بشكل واضح فى نهاية حكمه، وإنما تراكمت ألوان القطيعة والخلاف والتعبير عنها شعرًا مع تطور الأيام وتتالى القرارات والسياسات.

وبعد .. فهذه دراسة علمية اعتصمت بالحيدة والموضوعية، ولم تُعرف الهوى والغرض، فليس يميل بها حب أو بغض، وليس فيها تعصب أو شنآن، وإنما الحس الوطنى الصادق.

والله من رواء القصد.

د. عبد الله سرور

مدخل :

كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بداية طريق طويلة من الأمل الحلو، أحاطته زهور النضال، وراوحته نسائم الانتصارات المتعاقبة. بدأت الثورة بطرد الملك. وبعد عام كان قد تم إلغاء الألقاب، وسن قانون الإصلاح الزراعى، وإلغاء الأحزاب السياسية، والإطاحة بالملكية نهائيًا. وبدأ الناس يتنفسون الصعداء وقد أزيحت عن صدورهم كوابيس الملكية والإقطاع والفساد. وبعد عام آخر تم توقيع اتفاقية الجلاء لطرد المحتل. واستجاب الناس لشعار "ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد"، وتأجج الشعور القومى، وبدأ المد الثورى فى الاندفاع قويًا حتى بلغ ذروته عام ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثى على مصر الذى جسد المواجهة الحادة بين القوى الوطنية والتحررية الناهضة، وقوى الاستعمار العالمى.

وكانت الفترة منذ عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧ هى فترة التحولات الكبرى فى المجتمع المصرى، كما أنها كانت فترة الآثار العالمية المباشرة للثورة المصرية. عالميًا كانت هى فترة النضال ضد الاستعمار وأعوانه، ومساندة حركات التحرر فى كل مكان، والتصدى لسياسة الأحلاف العسكرية، وكل أشكال الرجعية،

ومحاربة الأنظمة السياسية العميلة، وبناء تجمع سياسى عالمى جديد تمثل فى حركة عدم الانحياز.

وكانت النتائج باهرة، فقد تحررت كثير من الشعوب العربية والإفريقية، وأنشئت منظمة الوحدة الإفريقية، وسقطت سياسة الأحلاف والمحاور، وتهاوت الأنظمة الرجعية، وشبت الثورات فى كل مكان، وبدأ حلم الوحدة العربية يتحقق بقيام الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨م، واقترب فجر الوحدة الشاملة بعقد أول مؤتمر للقمة العربية عام ١٩٦٤، وراحت قوى الثورة تصيب الاستعمار كل يوم بسهم جديد. وصار عبد الناصر رمزًا عالميًا للنضال ضد الاستعمار وتحرير الشعوب المغلوبة.

أما فى مصر فقد كانت فترة ٥٦ - ٦٧ هى زمن تعاظم الشعور بالشخصية القومية، وترسيخ قيم العروبة والوحدة العربية، والنضال لتحقيق الحرية والعدالة والمساواة، ونشر التعليم المجانى، وكسر احتكار السلاح. وكان مشروع السد العالى تجسيدًا للقدرة على التحدى والإنجاز، ليبدأ بعدها إنشاء أكبر قاعدة صناعية فى الشرق، إلى جانب أكبر قوة عسكرية. ثم كان التحول الاشتراكى لتحقيق العدالة الاجتماعية بقرارات التأميم وصدور القوانين

الاشتراكية، وقام تحالف قوى الشعب بديلاً عن التناحر الحزبى، وصدر الميثاق وثيقة فكرية ودليلاً للعمل الثورى الاشتراكى.

وهكذا بلغ الشعور الوطنى ذروته، وتألقت كل المشاعر والأفكار القومية ولمعت شخصية عبد الناصر الفذة، التى جسدت حلم الجماهير وعطشها القديم إلى بطل أسطورى منقذ ومخلص، يدمر الاستعمار والغزاة، ويقيم الحق والعدل، وينشر الخير والنور، وكان عبد الناصر يشغل كثيرًا من المواقع الاستراتيجية الحاكمة فى المجتمع، فغدا هو العقل المفكر، والحكيم المدبر، والخبير المخطط، والثائر المحقق لكل الأحلام، فتأكدت شخصيته الأسطورية، وغدا كل إنجاز ثورى لصيقًا بشخصه، منسوبًا إليه وحده، ودعمت ذلك أجهزة إعلام قوى مثير ذات سلطان لا يقهر، فخلط الناس بين الحلم والواقع، وبين الرمز والأسطورة، وذابت كل العناصر والسلطات والأجهزة، وصارت جميعًا وجهًا واحدًا لعملة فريدة هى الزعامة الكاريزمية.

ولقد كان للشعراء نصيب كبير فى تجسيد أسطورة عبد الناصر، وقاموا بدور مهم فى التعبير عن ذلك، فكان الفصل الأول "عبد الناصر الأسطورة". أما الفصل الثانى فكان عنوانه "عبد الناصر الثائر"، وفيه بيان لموقف الشعراء من القائد الثائر الذى سعى إلى صنع

إنسان جديد ومجتمع جديد، وخاض حروبًا ومعارك طاحنة لتغيير أبنية المجتمع المصرى وهياكله، قبل أن يشرع فى تحدى الاستعمار العالمى، فقد كان عبد الناصر زعيمًا لأول ثورة كبيرة ناجحة فى العصر الحديث نجحت فى إحداث تغيير جذرى فى المجتمع المصرى، ثم امتدت خارجه حتى صارت الثورة المصرية - آخر الأمر - هى النموذج والمثل، وصار عبد الناصر رمزًا عالميًا للثورة والنضال ضد الاستعمار.

وآمن الشعراء بأن الفن الأمثل هو الفن الثورى، الذى يقتضى من الفنان التزامًا بقضايا أمته وعصره، واعتناقها والصدور عنها، تأكيدًا لأهداف الثورة المجيدة فى تحقيق اليوتوبيا الجديدة أى مجتمع الثورة الذى فيه إنسان الثورة.

وكان الفصل الثالث بعنوان "عبد الناصر السياسى" وتناولت فيه موقف الشعراء من قرارات وسياسات عبد الناصر وأحداث عصره، ولما كان فى الفصلين الأول والثانى متسع لمن أحب عبد الناصر وأيّده وتعلّق به، فقد عرض الفصل الثالث لبعض كتابات من اختلفوا مع عبد الناصر أو انشقوا عليه. وأكثر هذا الشعر محفوظ غير مكتوب، لذا تساقط أكثره من ذاكرة الزمن، فلم يبق إلا أقله. ولقد اجتهدت للعثور عليه فكان لى منه نصيب.

ولقد كانت دراستى السابقة بعنوان أثـر النكسة فى الشعـر العربى" سببًا لفتنى إلى كتابة هذا البحث، إذ تعرضت فيها إلى موقف الشعر من عبد الناصر قبل النكسة وبعدها، ولذا كان لزامًا علـى أن أستعين فى الفصلين الأول والثـانى بمـا كتبتـه فـى دراسـتى السـابقة، مضافًا إليه نظر جديد، أما الفصـل الثـالث فقـد كـان جهـدًا جديـدًا بذلت فيه ما استطعت.

وبعد ... فهذه دراسة غير مسبوقة، تتناول موقــف الشـعراء مـن الأحـداث السياسية والاجتماعيـة فـى فـترة بعينهـا مـن فـترات التاريخ، أما عبد النـاصر، فقـد كـان شـخصية كبـيرة تحقـق لهـا مـن الوجود والأثر ما يزال الناس مختلفين حوله إلى اليوم.

الفصل الأول

عبد الناصر الأسطورة

كان عبد الناصر شخصية فذة، وبطلاً شعبيًا بكل المقـاييس، أحبه الناس وعشقوه، فقد بعث لهم صور البطولة العربيـة مـن طيـات التاريخ إلى الحياة من جديد. كان واحدًا من أبنـاء الطبقـة الوسـطى التى ارتبطت به كل الارتباط، وانحاز إلى العمال والفلاحين والفقـراء والمطحونين، فالتهبت مشاعرهم له تأييدًا وعرفانًا، وقد فتح لهم كـل الأبواب الموصدة، وأزاح من طريقهم كل الحواجـز والعوائـق، وأزال أمام أعينهـم مـا كـانوا يظنونـه لا يـزول، فأطـاح بقـوى وبكيانـات سياسية طالما جثمت على صدورهم، ورفـع أمـامهم شـعارات الحـق والعدل والحرية والمساواة، ومنحهم حقوقًا كـانت تلـوح لهـم خيـالاً بعيد المنال، وبشرهم بكل معانى القوة والعظمة، واستنفر فيهـم المثـل العليا والقيم النبيلة.

وخاض عبد الناصر، ومعه الأمة كلها، عديدًا مـن المعـارك، حقق فيها انتصارات متواليـة ألهبت الشـعور الوطنـى، وحفظـت لـه اندفاعة لا تعرف الفتور.

ودار الشعر العربـى فـى هـذا الفلـك الـدوار حـول صفـات البطل وصورته المثلى، كما وجدها الشعراء فى زعيمهـم جمـال عبـد الناصر، وتغنوا طويلاً بشخصه وقيمـه وأفكـاره وسياسـاته ومعاركـه وانتصاراته وإنجازاته. وأفاضوا فى ذلك إلى حد بعيد حقق لنا اتجاهًـا

متميزًا فى الشعر العربى يمكن أن نسميه الاتجـاه النـاصرى، بحيـث إن مثالاً واحدًا مثل ديوان "وفاء" للشاعرة السورية عفيفة الحصنى يمكن أن ينهض دليلاً قويًا على وجود هذا الاتجاه وصحته وقوته، فالزعيم:

كَسَــرَ القَيْــدَ وأصنــامَ الجمُــود

قَهــر الخصــمَ بحَــزْم وصُمُــود

وبنَــى بالحُــبّ صَرْحًــا للخُـلود

فى رياضِ العُرْب فى مَهْدِ الجدُود[1]

إنه محطم القيود، وفاتح باب الحرية أمام الشعب، وهو محطم أصنام الجمود بدعوته إلى الانطلاق والبنـاء والقـوة والمجـد والعظمـة، وهو قــادر بحزمـه وصمـوده على قهـر الخصـوم الذيـن يخطئـون، إذ يتوهمون القدرة على تحقيق الغلبة عليه. وهو رافع لواء الحب، علـى الرغم من قوته وعزمـه وصمـوده، وبـذا يبنـى صرحًـا جديـدًا شـامخًا يضارع به أمجاد أجدادنا الذين تشهد الدنيا بفضلهم.

وهكذا اجتمعت فى الزعيم عديد من الصفات المثـال، فغـدا كاسر القيد ومحطم الأصنام والقــاهر، والحـازم، والصـامد، والبـانى، والمحب. لقد تحول الزعيم إلى أسطورة أثراها خيال المحبين والمنبهريـن

بما قاله الزعيم أو حققه، وغذتها خيـالات المحبطين والزاحفـين علـى أرض الواقع الأليم.

إنه قـادر علـى أن يهـز كيانـات كـبرى فـى الغـرب بغضبـة واحدة من غضبات :

هَزّت كيان الغَرْب غَضْبَةُ ناصر

أَرْدَى قُلوبَهُـم بعَـزْم لا يَلين(٢)



عبد الناصر مع الرئيس الأمريكى أيزنهاور

بل إنه حين يصمد فى وجه العدوان تتصدع الدول الباغية فرقًا وإشفاقًا، كما أن صمود الزعيم غدا الضمان الأكيد لثبات التاريخ واستمراره، فلا أقل من أن يتوجه الشعب إليه بالتحية الخالدة خلود العالمين :

وصَمَدْتَ يا أملَ العُروبة لَمْ تَلِنْ فَتَصدّعتْ دُول الغُزاة المارقين

لـولا صُمودك يا جَمـال بقُـوة لتقهقـر التَاريخُ آلافَ السنين

فإليـكَ منّا يا جمـالُ تحيـةٌ ما خَلّدَ التَّاريخُ ذكْرَ العَالَمِين[٣]

ورسمت قصائد الشعراء صورة الزعيم على هذا النحو الأسطورى المعجز، وأنه الرحمة التى تسع الدنيا جميعًا، وشهاب القوة الذى تعنو له رقاب الأعادى فتصعق أكبادهم :

رَحْمَةٌ فى السَلْم يحنُو ظِلُّها تَسَعُ الدُّنْيَا بحلـم عجب

وشـهاب فى الوغى تعنو له مرعـدات للدخيل الصخب

إن تـروه غاضبًا مسـتبلاً أو تـروه فى جـلال النُّوب

صعقـت أكبادكـم لاهثـة وتوارت فى صعيد الهرب[٤]

ووصف الشعراء الزعيم بأنه أشعل نور الهداية المقتبس من نور النبي العربي ﷺ فالزعيم منطلق من تراث عظيم تقدسه الجماهير :

ناصر أشعَلَ نبراسًا لنا   من هُدَى نُور النَّبي العَربي(٥)

وصورت القصائد الزعيم على أنه يصنع كل شيء ماجد أو مثالي، وما يصنعه كاف لتحقيق أماني الشعب، ودور الجماهير أن توجه له التحية، وتفتديه بالأرواح والأموال، وتبايعه بالقلوب والعقول.

إنا نحيّي ناصرًا وشعارنا   أَنْ نَفْتَدِيه بروحنا وبمالنا

أجمالنا ملأتْ مآثرك الدُّنى   فاعذُرْ إذا لم تُحْصِها أَقْلامُنَا

يا مَنْ حَمَلْتَ وأنْتَ تبسمُ عبئنا   هل ينقد الثمن الخطير وفاؤنا

يا من دَعَوْتَ إلى العظائم والعُلا   ورفَعْتَ بالمَجْدِ الأثيل بناءنا

قد بايعتْكَ قلوبُنا وعقُولنا   وبنور هَدْيكَ تأسى أفعالُنَا(٦)

وهكذا فإن الزعيم يصنع كل شيء، ونحن نرفع شعار الفداء له، فمآثره ملأت الدنيا إلى حد العجز عن إحصائها، وقد حمل عنّا كل الأعباء وهو يبسم راضيًا ومستهزئًا بالأنواء والمصاعب، ودعا

إلى العظائم والعلا، ورفع بناء المجد، ولذا بايعته القلوب حبا والعقول رضى، وحين تقع المصائب وتنزل الخطوب يجأر الشعب بالهتاف مستغيثًا بناصر ليرد عنّا الأهوال ويرفع عنا الخطب، فهو لا يعرف الوهن.

فالشَّعْبُ يهتفُ مستغيثًا ناصرًا   يا أيُّها البطلُ العظيمُ الثائر

إنَّا على عَهْدِ الوفاء لوحدة   كُنَّا بها بين الأَنَامِ نُفَاخِر

ومضى بنا ربَّانُها ببسالة   يعلُو جبالَ المَوج وهُو مثابر

لا يعتريه الوهن مهما أحدقت   بالركب أهوال وبحر هادر[٧]

وفشلت الوحدة المصرية السورية، وانفصمت عرى الجمهورية العربية المتحدة، وتبدد الأمل الحلو فى عودة الوحدة العربية إلى الوجود، إلا أن الشعب ظل وفيًا لتلك الوحدة التى لا يحققها غير ناصر، فهو ربان السفينة الباسل، يملك الصبر ولا يعتريه الوهن على الرغم من كل الأهوال العوانى، وهو الزعيم العبقرى المؤمن المنصور من الله، العادل بانى المجد، بل هو الشمعة التى تحترق كى تنير لنا الطريق :

وَمَضَى يَشُقُّ المَوْجَ فُلْكُ جَمالنا   يَرْعَاهُ فى اليَمِّ العزيزُ القادِرُ

يَرْعَـى زَعيمًا عَبْقَرِيًّا مُؤْمِنـا بالحقِّ يُعْلِي شَـأْنَهُ ويُنَاصِرُ

بَطَلٌ دعانـا أنْ نُشِـيد مجدنا بِمَحَبَّـةٍ وبقـوة تتضافـر

بَطَـلٌ تَعَهَّدَ أَنْ يُقِـرَّ عَـدَالَـةً مَهْمَا يُحَاوِلُ طَعْنَهُ الْمُتَآمِـر

صَهُرَ الفُؤادَ لكى يُنِيرَ سَبِيلَنَا وكذلك الشَّمْعُ الْمُضِئ السَّاهِرُ

شَحَذَ العزائم كَىْ يشُقَّ طَرِيقَنَا ويُعدَّ جيلاً للسَّمَاءِ يُبَادِر(٨)

وما دام الزعيم يصنع لنا كل شىء فهـو زعيـم غـير عـادى، وكل ما يتصل به، أيضًا غير عادى. إنه فوق مستوى البشـر، عزيـز المثال، نادر النظير، لذا يقسم الناس با لله وبجمال وبالإسلام وبالقرآن أن يظلوا مخلصين له طائعين :

قَسَمًا بربِّكَ يا جمال وبالعلم قَسَمًا باسـمك بالعُروبةِ بالقلم

قسـمًا بإسـلامٍ أدينُ بهديه قسـمًا بقـرآن تَنَـزَّلَ بالكلم

إنّى لأُخْلِصُ ما حَيِيتُ لناصر ولِمَوْطِنِى العَرَبِىّ تَبْنِيه الهِمَم(٩)

لذا يجب الحفاظ على الزعيم من كـل مـا يمكـن أن يسـوءه، حتى أهون الأشياء، فقـد يعكـر طنـينُ بعوضـة رؤيـاه وراحـة نومـه، فليذهب البعوض إلى الجحيم :

وإنّـى لأُعلى ناصرًا أن يمسَّه غُبارٌ إذا ثارَتْ زوابعُ خَصْمِهِ
ولكنّنى أَخْشى طنينَ بعُوضَة تُعَكِّرُ رُؤيـاه وراحــةَ نومه[١٠]

لقد تعلقت أنظار الناس بجمال عبد الناصر، فكـالوا لـه كـل أوصاف العظمة والبطولة والعدل والكمال، ولم يدعوا من الصفـات الحسنة شيئًا لم يلصقوه به، وأصبح الحديث عنه وحده صورة للمثـال والكمال، فقـد كـان شـخصه وحـده كافيًـا لتكـون جميعًـا الأكمـل والأعظم. وفى وسط هـذا الـتركيب الأسـطورى والزخـم العـاطفى والإعلامى المثير، لم يعد أحد يتحدث عن الشعب وقدراتـه وإنجازاتـه أو طموحه وآماله أو حتى آلامه، فكل شـىء ملتصـق بـالزعيم وهـو الموكل إليه تصاريف الأمور، فهو الذى يفكر لنا، وينجز لنا ويجاهد، ويخوض المعارك، ويأتينا بالثمرات آخر الأمر، وكأن الأمـر لا يعنينـا، وكانت تلك فاتحة السلبية والخمـول، فمـا دامـت كـل الخيـوط بيـد الزعيم وحده، ومادام الأمر موكولاً إليه بدءًا من التفكـير إلى حصـاد الثمار، فلا دور للشعب فى الفعل والتحقيق والجهاد والانتصـار، بـل يقتصر دوره على التأييد والمبايعة والتصفيق والتهليل.

ولم يجد الشعراء حرجًا فى التعبير عن هذه الحقيقة، وكأنهـا مفخرة وليست منقصة، فهذا عبد المنعم الأنصارى يعلنها فى وضوح وكأنها مزية للتفاخر :

عَــوَّدْتَنـا ألا نُفَكِّــرَ حينًــا فى الأمْرِ ... حتى كاد لا يعنينا

وحَمَلْتَ أَعْبَاءَ الحياةَ جَميعها عنا.. وسِرْتَ بها كمــا يُرضينــا

وَســألْتَ أعْطَيْنــاكَ دُونَ تَرَدُّدٍ أغْلَى الذى قــد كــانَ فــى أيدينا

فَزَرَعْتَهُ فى تُرْبَــة .. مِعْطَاءةٍ وَنَمَا نَمَاءَ الحُبِّ فـــى وادينا[11]

فالشاعر يمدحُ الزعيم بأنه قد عودنا ألا نفكر، ويشفق عليه لأنه حمل أعباء الحياة جميعها عنا، وأننا أسلمنا إليه قياد كل شىء فى ثقة وراحة نفس. وهو لا يعرض الأمر غاضبًا أو مستنكرًا، بل يعرضه باشا متباهيًا. وهكذا غدا الزعيم الأسطورة يصنع كل شىء، إنه يحلم لنا وينجز لنا ... ونحن فقط نسبح بحمده ونمجد له ... يقول الشاعر :

أمَّــةُ العُرب تُبَاهى بجمال

نَاصِــرُ حَقَّقَ أحْلامَ الخَيال

باعثُ المَجْدِ وعملاقُ النِّضَال

رَائِدُ العَدْلِ ونبراسُ الكمَال[12]

نحن نباهى بجمال عبد الناصر لأنه حقق الأحلام البعيدة، وبعث المجد، وقاد النضال، وراد العدل، وقدم صورة الكمال ... إنه يصنع كل شيء ونحن فقط نباهى، وليس عليه إلا أن يأمر فنلبيه جميعًا فى طاعة لا تعرف المُروق :

إنَّا جُنودك يا جمال بشيبنا وشبابنا يا قائدَ العُرب الأمين

إنَّا جنودُكَ يا جمالُ بولدِنا ونسائنا فأمر تَجِدْنا طائعين

لَبَيْكَ هذا عهدُنا ويميننا لا نحنثُ الأيمانَ لسنا قانطين[١٣]

لقد صار جمال معشوقًا يتغزل فيه الشعراء، ويلحون على أن يلصقوا به كل وصف جميل أو عظيم وربطوا بين شخصه وسلطاته وإنجازاته دون فصل أو تمييز، فجمال هو الثورة، وهو السد العالى، وهو الدعوة إلى السلام. إنه البطل الأسطورى يقفز من رحم الخيال إلى أرض الواقع، فالتصقت به كل صفات المثل الأعلى كما التصقت به كل إنجازات المرحلة :

وجمال هل علمتم من جمال زعيمًا للنضال العربى

هل عرفتم معدنًا متقدا صاغه الله بصافى الذهب

هل رأيتم هيبة العملاق إذ يترامى خصمه عن كثب

هـل شـهدتم قـائدًا ملتزمًـا خلقـه القـرآن نهـج الأدب

هـل علمتـم ثـائرًا فـى أمـة يحطم الأصنام حطم العطـب

هـل عرفتـم بانيـا، ميثاقـه يضـع العـدل بديـل الحـب

سدّه الجبـار سـفر جـامع حول التـاريخ رغـم النُّصُب

فـى دمـاكم أثـر مـن عزمـه قد عرفتـم جِـرَّهُ فـى الغَلـب

وجرعتم غُصصًـا مـن حزمـه في دوىّ مـن عظيـم الخطـب

رحمة فى السلم يحنو ظلها تَسَعُ الدنيا بحلـم عجب(١٤)

لقد صوره الشعراء علـى أنـه يملـك قـدرة عاتيـة علـى فعـل المستحيل، حتى كاد أن يكون قادرًا على البعث والنشور، وأن يـأتى لمصر بخلق جديد هم جيل الثورة. وقد بعث الرعب فى قلب القدر، فكأن جمالاً إله قدير يقـول للشـىء كـن فيكـون ... يقـول حلمـى مرزوق :

كـأنَّ جمَـالا إلـهٌ قَدِيـر

إذا قـال للشـىء كُـنْ فيكـون

. . . .

ويــأتى لمصــر بخَلْــق جَديــد

جمــالٌ زعيــم أجَــدَّ الحيــاة

وحَطَّم فــى الشَّـرْق وَهْــمَ العَبيــد

دعــــــــاةَ الضــــــلال

دعـــــــاةَ الخَــــــــوَر

دعــاة الهزيمــة بــين الرجــال

وَحَـرَّكَ فــى الرُّعْـب كَـفُّ القــدر

ليمْحُــوَ مــا رَقْــشَ الأَدْعِيَــاء

ويُثْبِــتَ مــا يَصْنَــعُ الكبريــاء

ويكتُــبَ تاريخَنَــا بــالدم

ويعلُــو علــى الواقــع المُؤلِــم

ويَمْــنَــعَ أنْ يســتــرد الظــلام(١٥)

وهكذا غدا الاتجاه الناصرى الأسطورى اتجاهًا شعريًا أصيلاً متميزًا، ارتبط بشخص الزعيم وأفعاله ودار حوله، ووصف شكله وأخلاقه وشمائله، ومجّده إلى حد يشبه التقديس، وربط بشخصه كل قضايا المرحلة وموضوعاتها وإنجازاتها، ولم يعد ثمة فارق بين شخص الزعيم ومنصبه الرسمى وسياسة الدولة والمواقف والقضايا المختلفة،

بل كلها جمال، حتى إن شاعرًا تقليديًا مثل الأستاذ على الجندى يقف عليه جُل شعره فى هذه الفترة، فيصف الرئيس بأنه يحمل همَّ العرب جميعًا حتى شابت رأسه، والحاكم العادل، والفتى الصعيدى الأبى، وخليفة صلاح الدين، والصادق القوى، تنطق أعماله بعظمته، وباتت له جولدا مائير أمة ذليلة. أما بن جوريون فقد صار وطاء لنعليه، وقد جاء به الله لتجديد بناء الأمة وبعثها من جديد، يقول الشاعر مادحًا الزعيم :

حاملاً هَمَّ بنى العُرب مِنْ دَانٍ ونَاء

جاهدٌ فى حُكمه العادل والحُكم شقاء

تبعات شَيَّبَتْ فَوْدَيْهِ شأنَ الحُكماء

ولِبَعْض الشَّيْبِ نُور ووقَارٌ وبهاء

الفَتَى (المُرّى) بأسًا و(الصَّعِيدىّ) إباء

و(الصَّلاحى) اعتزامًا حينَ يَحْمَرُّ العَداء

والذى يَصْدَعُ بالصِّدق ويأبَى الافتراء

والذى ينطق بالفَصْل إذا اشْتَدَّ المِراء

والذى يطلعُ كالصُّبْحِ إذا استشرى العماء

والذى بأراى عنه فى الدياجى يستضاء

والـــذى أعمالـــه تُغْنِيـــه عـــن كُـــل ادّعَـــاء

والـــذى شَـــادَ لنـــا السَّـــدّ لنحظَـــى بالرَّخـــاء

والـــذى يَمْضِـــى أمامـــا ليـــس يَـــدرى مـــا وراء

والـــذى يهجـــم كـــالضَّيْغَم مـــن حيـــثُ يشـــاء

والـــذى كـــان لصهيـــون مـــن الحمـــق دواء

والـــذى بـــاتَتْ لـــه (مايـير) مـــن بعـــض الإمَـــاء

والـــذى رأسُ (ابـــن جوريـــون) لنَعْلَيْـــهِ وطـــاء

والـــذى جـــاءَ بـــه ا للهُ لتجديـــدِ البنـــاء[١٦]

لقد بلغ الأمـر حـدًا غريبًـا نتيجـة كـل تلـك الصفـات غـير العادية التى سعى الشاعر كى يلصقها بالزعيم، بل إن فى كثـير منهـا مجافاة لحقائق الواقع ومنطق العقل القويم، بحيـث صـار مـن حقنـا أن نتسائل -الآن- عن مدى مسئولية الكتاب والشـعراء عـن النكسـة ؟ أليس مـن الخطأ الجسيم أن نتحـدث فقـط عـن مسـئولية القـادة السياسيين والعسكريين عن نكبة البلاد، ولا نتحدث عـن مسـئولياتنا -فئات وجماعات- عما بلغه القادة من درك، ومـا انجرفـوا إليـه مـن هُوة ؟

لقـد أفـرط الشعراء فى رسـم ملامح وتفاصيل الشـخصية

الأسطورية للزعيم إلى حد بعيد يكاد يتصل بالخرافات ويبتعد عن منطق العقل. لكن هذا التزيد والإفراط لا ينفى حقائق الواقع وجملتها أن عبد الناصر قد أحبته الجماهير وتعلقت به على نحو أسطورى.

وأغلب الظن إن ملامح الشخصية الأسطورية كما رسمها الشعراء لعبد الناصر كانت ملامح مستمدة من التراث الشعبى، فالبطل فى سيرنا الشعبية لابد أن تحيطه الخوارق، وتحاصره الأهوال، ويخترق الصعاب ويقهر المستحيلات، ويعيد للجماعة حقها الضائع والسليب، وينازل أعداء أشداء تشتهر قوتهم، ويلمع بأسهم. كما أنه بطل راجح العقل، عادل، صانع للخير، يلتف حوله الناس فى إكبار وإجلال، ويحبونه إلى حد التضحية من أجله بكل غال، والدفاع عنه بكل سبيل. وهذه كلها صفات حرص الشعراء على إسباغها على الزعيم فلا عجب أن نقول إنهم وصفوا عبد الناصر الأسطورة.

وحين وقعت النكسة، وخرج عبد الناصر على الناس يعلن النبأ الحزين، وأنه يتحمل المسئولية عن كل ما جرى، ويعلن تنحيه عن تحمل مسئولية الحكم، كان الموقف غريبًا، وكان رد الفعل أغرب ألف مرة، فلم تنفعل الجماهير إلا لنبأ التنحى، إضافة إلى أن

الارتباط العاطفى العظيم بين عبد النـاصر والجماهير لم يكن يخضع للأعذار والمبررات والأسـانيد العقليـة، فهـذا الصـوت الخـاص الـذى ألفوه صباح مساء ولسنوات طويلة لم يتصوروا كيف يمكن أن يغيب عنهم. وإذا اقتربنا قليلاً مـن دائـرة مفـردات الواقـع نجـد أن المسـافة كانت كبيرة جدًا بين عبد النـاصر ومَـن حولـه فـى وجـدان النـاس، فكيف ينهض من أعوانه بديل له ؟ إضافـة إلى أن مـرارة الأسـى فـى صوت عبد الناصر المتهدج، وهو يعلـن نبـأ النكسـة، جعلـت النـاس يشعرون وكأنهم على شاطئ مهجور قد فارقتـه سـفينة لا تعـود، أو كأن الريح تعبث بسفينتهم وسط بحر الأهـوال، فـلا منقـذ ولا ربّـان غير جمال.

وفى هذه اللحظات النادرة التكـرار فـى التـاريخ الإنسـانى، خـرج النـاس جميعًـا مـن بيوتهـم وأعمـالهم فـى مشـهد أسـطورى، واندفاع عاطفى أعمى يتخبـط علـى غـير هـدى مـن المنطـق القويـم أو التفكـير الهـادئ المتزن، وانطلقـوا يومـى ٩، ١٠ يونيـو يرفضـون التنحى، ويطالبون الزعيم بالبقاء، ويتمسكون بقيادته، وهُرع سـكان المدن والقرى إلى القاهرة فى مشهد عاطفى مهيب، يهتفون لـلزعيم، ويناموى فى الشوارع وينتحبون ويهذون، واسـتجاب الزعيـم وبشـر الجماهير بطريق المستقبل معلنًا: «إن ما أخذ بالقوة لا يُسترد بغير القوة»



عبد الناصر مع الرئيس السورى شكرى القوتلى

وهكذا فإن التلاحق الدراماتيكى للأحداث، كان اندفاعًا أسطوريًا غير مألوف أو متوقع، كما كان عاطفيًا نادرًا وغير عقلى، لم يتح لأحد فرصة للتقويم أو المراجعة، ومن ثم كانت مواقف الجماهير وردود أفعالها لما وقع فى ساحات القتال، متأخرة بعض الشيء.

وخلاصة القول إن الجماهير فى غمرة اندفاعها العاطفى المهيب، لم يكن الشعراء فى غيبة عنها، بل كانوا فى بُؤرة الانفعال اللامع، ومع أول خروج الجماهير يوم ٩ يونيو غنّى صالح جودت يطالب الزعيم بالبقاء، والرجوع عن قرار التنحى، فهو الأمل الباقى لغد الشعب، بل إنه بعد إعلان النكسة بساعات قليلة يقول إننا جففنا دمع الهزيمة وتبسّمنا، ولم يبق أمامنا إلا أن ينهض الزعيم ليدفعنا بعد النكسة ويرفع هامتنا :

قُمْ واسْمَعْها مِنْ أعماقى فأَنَا الشَّعْبْ

ابْقَ فأنتَ السَّدُّ الواقى لُنى الشَّعْب

ابْقَ فأنتَ الأملُ الباقى لِغَدِ الشعب

أنتَ الخيرُ وأنتَ النُّور

أنت الصَّبْرُ على المَقْدُور

أنْــتَ النَّــاصِرُ والمنصُــور

ابـق فـأنتَ حَبيـبُ الشَّـعْب — دُمْ للشـــــــعب

* * *

قــم إنّــا جفَّفْنَــا الدّمعــا — وتبســــــــمنا

قُــمْ إنّــا أَرْهَفْنَــا السَّــمْعَا — وتعلَّمنــــــــــا

قُــم إنــا وَحَّدْنــا الجَمْعَــا — وتقَدَّمْنَــــــــــا

قُــمْ للشَّــعْبِ وبَــدِّدْ يأسَــه

واذكُــر غَدَهُ واطْـرَحْ أمْسَــه

قُــمْ واندَفَعْنَـا بعــدَ النَّكْسَــة

وارفَـعْ هامَـةَ هـذا الشّــعب — دُمْ للشَّـــــعب[17]

وتتالت قصائد الشعراء على الوتيرة التى كـانت سـائدة قبـل النكسة، تمدح الزعيم وتمجده وتبـارك أعمالـه وسياسـاته، أو تصـف حركاتـه وسـكناته، أو تتغزل فيـه وتصـف ملامحه وعينيـه وقامتـه ومشيته.

ووصفه الشعراء بأنه صاحبُ القلب الكبير الذى يخفق لكل ما يجرى على أرض مصر فى أحجار السّد وفى مُدن الدلتا، وفى ثياب الريفى المجهد، وكتب الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة "أغنية إلى عبد الناصر" يقول فيها :

يا حُبّ بلادى الأول
تُبْحرُ فى عينيك الآمال
تَبْدأُ رحلَتها
بين خمائل هذا الحُبّ الأجيال
فى مصر العليا
يخفق قلبك
فى الأغنية الصَّخْرِيّة
فوقَ جواد مُنْدَفع أبيض
فى أحجارِ السَّد
يخفق قلبك
فى مُدن الدلتا
فى الأبنية الطِّينية
فى الدخنة المُرتفعة

تشـــــــتعل حمَاسًـــــــا

يخفـــــــــقُ قلبـــــــــك

تحـــت ثيـــاب الريفـــى الُمجْهَـــد

يعـــــرفُ سِــــرَّ العـــــالم

فـــــى بِضْعَـــــة أغْنَـــــام

ويظل الشاعر يعدد أوجه الحياة ومجالاتها فى مصر، ولكل يخفق قلب جمال عبد الناصر حبًا وانفعالاً وثورة، ودليلاً على أن الزعيم قائم وموجود فى كل همسة وكل خطوة وكل عمل أو حياة، حتى يقول أخيرًا :

فـــى كـــل فـــؤاد يبنـــى بيتًـــا للحـــب

يخفـــــــــق قلبـــــــــك

لكنّـــى يـــا حُـــبَّ بـــلادى الأول

أسمـــــعُ فـــــى قلبـــــك

خَفْقَ فُؤاد حبيبتك السَّاهِرة على ضَفَّة نهـر

فـــى قلبـــك تخفـــقُ مصـــر(١٨)

هكذا كان الزعيم موجودًا فى كل ثنايا الحياة، فى الدمعة، فى الابتسامة، فى دخان المصانع، فى الأبنية الطينية، فى السد العالى، فى المدن الساحلية، إنه فينا ولذا فهو معنا فى كل آن. هذه جميعًا ليست صفات بطل بشرى مهما علا شأنه، وجلّ فعله، إنها صفات البطل الأسطورى الذى أثْرت مكانه وقدراته خيالات المُحبين.

وتوفى جمال عبد الناصر فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٠م، فى واحدة من أنبل معاركه لتوحيد الصف العربى، ووقف مذابح أيلول الأسود ضد الفلسطينيين فى الأردن، ومن أجل حشد القُوى جميعًا ضد العدو المعتدى، بدلاً من توجيه السلاح العربى إلى صدور الأشقاء. وكان موته مفاجأة مذهلة للجماهير التى أحبته وتعلقت به وعَلّقت عليه الآمال، فقد كان يمارس عمله العام إلى آخر لحظة من حياته. وكان موته مفاجأة لأنه وقع فى زمن استشعرت فيه الجماهير قرب موقعة الثأر من العدو المحتل، وردّ الكرامة السليبة. وكان موته بعد ثلاث سنوات من الكّدِّ والجِدّ قضاها الزعيم فى رأبِ الصَّدْع وتوحيد الكلمة، وإعادة بناء الجبهة الداخلية، وحشد كل الطاقات للمعركة التى جَهَّز لها جيشًا قويًا قادرًا. وإضافة إلى أن عبد الناصر كان بطلاً أسطوريًا فى أنظار الجماهير ووجداناتها لطول حكمه، وكثرة معاركه، وانتصاراته

وتعدد إنجازاته، إلا أن الجماهير ظَلَّت تتعلق به على نحو خاص جدًا فى السنوات الأخيرة لحكمه لكونه رمز الصمود وأمل النصر، ولكل تلك الأساب كانت وفاة عبد الناصر صدمة شعورية هائلة للوجدان العربى المصدوع، والمشاعر العربية المنكسرة أصلاً بسبب الهزيمة.

وفوق ذلك كان موته تهديدًا مباشرًا بانحسار المَدّ الثورى، ويثير القلق حول موقف الصمود وإزالة آثار العدوان، وأيضًا فإن موته كان يضع المكاسب الثورية فى موضع التنازع، إضافة إلى أن رحيله كان يقذف بأمل الوحدة فى مهب الريح.

كان ألم الفجيعة عامًا، ومرارة الإحساس بالفقد والخسارة عظيمة، فلا عجب أن تفَطَّرت النفوس فى بكاء مُنْهَمِر، وتراوح الناس بين الدمع والعَويل ونَدْبِ الحظّ العاثِر، والإحساس بالضياع والخوف من الآتى القريب، وأيضًا الإحساس باليتم والضعف.

وكتب الشاعر السودانى أبو آمنة حامد ديوانًا كاملاً أسماه "ناصريون .. نعم" يبكى فيه الزعيم ويقول فى مقدمته : «هذا ليس رثاء لعبد الناصر، وليست فيه كلمة رثاء واحدة، فالذى يرثى يموت وعبد الناصر يحيا». ولم يكتف الشاعر فى ديوانه بتعداد مناقب الزعيم ومآثره وصفاته، والحديث عنه وإليه، ولكنه ذهب إلى

الحديث الباكى إلى بيت عبد الناصر، مثل قصيدته "آه ... يا منشية البكرى" وهى المنطقة التى كان يقع فيها بيت الزعيم، يقول فى مطلعها :

آهِ .. يا مَنْشِيَّةَ البكرى .. أنَا — مثل شعبى .. ضائع الحظو.. يتيم

كُسِر الكأسُ على رَوْعَتِه — وبكَتْ خَمْرى اذكارات النّديم

آه من جُرْحى ومِنْ لوعَتِه — آه من ليلى ومن حُزنى المقيم

أنا مهما قلتُ عن أمجاده — يتلظّى الفَقْدُ عندى .. ويقيم

أين مِنّا حُبّه .. اللامُنتهى — أين منّا وجهه الصّافى الوَسِيم(١٩)

وعلى الرغم من أن الموقف يطفح بالحزن العظيم، والشاعر يعبر عن جزعه وأساه ولوعته بالآه الصارخة، إلا أنه لم ينس أن يتحدث عن الوجه الوسيم.

وتتمزّق الشاعرة جليلة رضا، وتكفر بالكلمات، وتستصرخ الأرض أن تكف عن الدوران، وأن ينهد جبلُ المُقَطّم ويتحطم، ويجف النيل بسبب الفجيعة، فلا حياة بعد جمال، فتقول :

صَلّيتُ للكلمات عُمرًا كاملاً — وجَثَتْ على محرابها الأفكار

وكفرتُ بالكلمات حينَ ترنَّحَتْ — وأصابَها يوم الوداع دَوار

يا يومنا المشئومَ يا يومَ الأسى | أوَمَا عَرَاكَ من الفَجيعةِ عار
حزن، وكم حزن حملت وإنما | هو ذلك العملاقُ والجبَّار
والحزن قد يأسوه خِلٌّ صادق | إلاه .. فهو الخِلُّ وهو الجار
ووجدتُنى أهْذِى، وربِّى عاذِرٌ | فهو العَلِيمُ بنا .. هو الغَفَّار
لِمَ لَمْ تَكُفَّ الأرضُ عَنْ دَوَرانها | لِمَ يعقُبُ الليلَ البَهيمَ نهار
لِمَ لَمْ يَمِدْ جَبَلُ المُقَطَّم هاويًا | ويَجِفَّ نِيلُ بلادنا الهَدَّار
وسألتُ مصرَ ومصرنا مِسْكينة | قَدْ هَزَّ كُل كيانها الإعْصَار
تبكى ويبكى حولها أبناؤُها | والدَّرْبُ مَوْجٌ والدِّيارُ قِفَار
ساروا بغير هُدى وقد وَلى الهُدى | وتوقف القلب الكبير فخاروا(٢٠)

والشاعرة حين تميل إلى كل هذه المبالغات، فإنما تعبر عن تلك النظرة الأسطورية إلى الزعيم فهو ليس قائدًا فارق الحياة، بل إن موته فجيعة جعلتها تكفر بالكلمات، وتتحدث عن اليوم المشئوم والحزن الذى لا يأسوه خل، وتعجب لأن الأرض لم تكف عن دورانها، و لم يبتعد الليل البهيم عن النهار و لم ينهد جبل المقطم متحطمًا، و لم يجف النيل العظيم أسى. ولو أن شيئًا من هذا الذى ترجوه الشاعرة حدث لما كان الفقيد بشرًا عاديًا، لكنها النظرة الأسطورية التى تحدثنا عنها. ومن الحق أيضًا، أن نقول إن وفاة عبد

الناصر كانت ألمًا قاسيًا لجسد لم يبق فيه مكان للألم من طول ما عاجلته الآلام، وتابعته الويلات.

أما الشاعر كامل أمين فيصف الزعيم بالبطولة والشجاعة، والوفاء، والجبل الأشم، والهرم، وتلك صفات يوصف بها الناس عادة، لكنه يضيف إليها الصفات الأسطورية أيضًا فيقول إنه صاحب الفكر الذى يطاول الجوزاء، والعمر الذى تساوى كل ساعة منه جيلاً، والعظيم الذى ينحنى أمامه خوفًا واستحياء، وهو الذى كان يطوى الأرض فتئن تحته، ويشير إلى الصحراء فتزهر فيها الخضرة ويسعى إليها النيل :

كانت حياتُكَ يا جمالُ فداء	وبطولة وشجاعة ووفاء
أَرْسَيْتَ كالجبلِ الأَشَمِّ على الثَّرى	فكرًا يكادُ يطاول الجوزاء
خمسون عامل كلُّ مطلِعَ ساعة	منها بجيل يُثْمِرُ الأحياء
وكأنه هرم على جنباته	عزماتُ خوفو تنحنى استحياء
عجبًا لمن ملأ الحياة بصيته	كيف انزوى تحتَ الثَّرى مُومياء
وهو الذى ما كان يطوى الأرض	إلا وهى ترزح تحته إعياء
وأشار للصَّحْراء فاخْضَرَّتْ له	وسعى إليها النيل يجرى الماء
بكت العُيونُ له فلما غِيضَ السَّد	مع البكا، بكت القلوبُ دماء

يـا مـن تصـافِحُكَ العُيـون محبـة وتطـوف حَوْلَيْـكَ العُيــون ولاء

يا من بِكَ احتفـت العُيـونُ كأنَّهـا بكَ أبْصَرَتْ بعـدَ العَمـى الأضـوَاء

فرحـت بمـا بـكَ أبْصَرَتْـهُ كأنَّهـا لـولاكَ عاشَـتْ عُمْرهـا عميـاء[٢١]

وعبّر صالح جودت عن الذُّهُول الذى ذهبَ بعقـل صاحبـه، وتمنى لو كذّب ما سمع، أو عادَ الزّمن إلى الوراء، فالنبأ الفاجع يعظُـم على التصديق :

مـا خَفَّقَتْ حدثـه صرخـة تقتلــع الأنفُــسَ أىَّ اقتــلاع

مِـنْ نبـأ، مِـنْ فَـرْطِ إعوالــه حَســبْتُه أكـبر مــن أن يُــذاع

وهل يعُـودُ القـدرُ القهْقـرى لو أنّنى كَذَّبتُ فيـه السَّماع[٢٢]

ويبين الشاعر محمد إبراهيــم أبـو سـنة فـى قصيدتـه "خـالدة مصر" كيف انفجر النبأ الفاجع حتى أذهل الزوج عن زوجهـا، وقـد شُبَّ البيت نـارًا بموت جمـال، واكتسـت الدنيـا لـون السـواد حزنًـا وحدادًا ويأسًا وأسى :

فى منتصف الليل

تحت ملاءات الأطفال

ينفجرُ النبأ الفاجع

"مات عظيم هذى الليلة"

....

تخرج مصر

من دفءِ طمأنينتها

تسبح فى أمواج ظلام المستقبل

ها هى نقطة حبر أسود

تسقط فوق النيل

تتسعُ وتعلو حتى الشاطئ

تتجاوزه تلتهم المدن المذهولة

تنقَضُّ على أكواخ القرية

تصحو الزوجة

تخرج من أحضان الزوج

توقظه "شب حريق يا زوجى فى البيت"

....

أخرج أعدو

يتبعنى يسبقنى

سيف النبأ الفاجع

مات جمال

مات الأب(٢٣)

وبكاه نزار قبانى بكل ما فى الدموع من مرارة، ورثاه بقصيدة ذاعت فى أركان عالمنا العربى، ورسمه آخر مثل أعلى تتعلق به الأبصار، وآخر الأنبياء فى الزمن الضال، بل جعله قتيلاً تحمل العروبة كلها وزر دمه بعد أن خرجت عن تعاليمه، ومنها قوله :

قتلناك ... يا جبل الكبرياء

وآخر قنديل زيت

يضىء لنا فى ليالى الشتاء

وآخر سيف من القادسية

قتلناك نحن بكلتا يدينا

وقلنا المنية

لماذا قبلت المجئ إلينا

فمثلك كان كثيرًا علينا

ورفض كثير من الشعراء تصديق نبأ موت عبد الناصر وكأنه ليس بشرًا يصدق فيه كل ما يجرى على مخلوقات الله، لكنها النظـرة الأسطورية جعلتهم لا يقبلون فيه الموت، واستخدم كثير من الشعراء تعبيرات مثل : "لا ... لم يمت"، وكأنهم يقولون إن عبد الناصر لا يخضع للناموس الطبيعى، أو كأن نظرتهم الأسطورية جعلتهم يغربون به بعيدًا عن حقيقة الموت الأزلية، فقال أحمد عبد المعطى حجازى يرثيه بقصيدته : «الرحلة ابتدأت» :

لا ... لم يمت وخرجنا نُجوبُ ليلَ المدينة

ندعوك، فاخرج إلينا ورُدَّ ما يزعمونه(٢٤)

أما صلاح عبد الصبور فكتب بكائية إلى عبد الناصر عنوانها "الحلم والأغنية" يقول فيها :

لا ... لم يمت

وتظل أشتاتُ الحديث، ممزقات فى الضمائر

غافيات فى السكينة

حتى تصير لها من الأحزان أجنحة

تطير بها كلامًا مرهقًا، يمضى ليلقفه الهواء

يرده لترن فى جدران دور مدينة الموت الحزينة

أصواتُ أهليها الذين نبت بهم سُرر البكاء

يتجمعون على أرائك السَّمر الفقير

معذبين ومطرقين

الدمع سقياهم، وخبزهم التأوه والأنين

يلقون –بين الدمعتين– زفير أسئلة،

تُخَشْخِشُ مثل أوراق الخريف الذابلات

هل مات من وهب الحياة حياته ؟

حقًا ؟ أمات ؟

ماذا سنفعل دونه

ماذا سنفعل بعده

هل مات ؟[٢٥]

وتمضى الشاعرة طلعت الرفاعي على الدرب نفسه، وترى صوت النعى افتراء لا يجوز قبوله فهذا محال :

من قال إن جمال مات ؟

من افترى ؟

من قال زال ؟

هو صامد، فى حومة الميدان

فى قلب الرجال

هو شعلة الفولاذ فى دمنا

على درب النضال

من قال إن جمال مات ؟

من افترى ؟

هذا محال

ما مات عملاق العروبة

قم وأذّن يا بلال[٢٦]

وكتب الشاعر عبد المنعم الرفاعى قصيدته "رثاء البطل" يكذب فيها الخبر، وكيف يموت من بعث الروح فى الموتى فصاروا ثائرين مناضلين :

كلاً .. فما صَدَقَ الناعى ولا الخبر

وتلك أعلامك الغراء تنتظر

يا باعث الروح فى الموتى: الطَّرادُ دَنا

والخيلُ تصهل، والميدان يستعر

والقدسُ من لوعة اللقيا لناصرها

تهفو بأرجائها الآيات والسُّور[٢٧]

أما الشاعر عبد العليم القباني فرأى أن موت الزعيم يقين أحب منه الضلال، وعبر عن ذهوله بالمبالغة الشديدة التى تصور غرابة الخبر واستبعاده، فقال :

أيها السائلون ... كيف المُحَال ؟

هكذا .. هكذا .. تَمِيدُ الجبالُ

هكذا .. هكذا .. الكواكبُ تهوى

حين تهوى – وتسحق الآمال

رُبَّ صــدق دنا، فأوفى، فأَضْفَى

فتغــالى، فلـم يُطِقْهُ الخيال

ويقيـــن تــزاور القلـــب عنـه

وهو فى كـل خفقــة زلـــزال[٢٨]

ولجأ الشاعر على الباز إلى المبالغة الصارخـة أيضًـا، قـائلاً إن عبد الناصر حي يقود على الرغم من موته، أما الشاعر فقـد مـات إذ بلغه نبأ موت الزعيم :

يقولــون : هــلاَّ رثَيْتَ جَمـالاً أجبتُ .. وهل أسـتطيعُ المحالا

وكيـف ؟ وَقَدْ مِـتُّ .. لما عَلِمْتُ ومن مــاتَ لا يســتطيعُ المقــالا

وكيـف ؟ وقد ظَلَّ رَغْمَ المـــات يقودُ .. ويحيا .. ويحدو النضالا

أيَرْثى الذى ماتَ .. مَنْ ظَلَّ حَيًّا ويحيا .. ويحيا ..سنين طوالا[٢٩]

وكتب الشاعر محمد عبد الرحيم إدريس قصيدته "لا ... لم يمت" ليؤكد فيها موقف الرفض للنبأ الفاجع، والتعبير عن الشعور بالمباغتة والانذهال، ويستكمل بعض ملامح تلك النظرة الأسطورية فى تأكيده أن الزعيم لم يمت، وكيف يموت وقد كانت رسالته وحى السماء وما أوحت به الكتب :

بـل لم يمت، فهو فى وجدان أمته

حتى بكل شعار نابـض يشـبُ

بلْ لَمْ يَمُتْ، فهو فى أضواءِ سيرته

مبـادئ بالعـلا والحقِّ تلتهـب

وهـل يَمُوتُ فتـى كانت مبـادؤه

بَعْثًا تُخَـلِّدُه الأزمَـانُ والحِقَـبُ

وهل يمـوتُ فتـى كانت رسـالته

وَحْيَ السَّماءِ وما أَوْصَتْ به الكُتُب(٣٠)

وسجّل الشاعر عبد المنعم الأنصارى هذا الموقف الأسطورى أيضًا فى شعره، فحين تلقى النبأ الفاجع عصف بـه الذهـول، واستمهل الشك لعل النبأ كاذب، وإذ تيقن منه انتظر معجزة عـودة

الحياة إلى الزعيم، و لم لا ؟ أليس الزعيم معجزة السماء ؟ ألم يكن الشعب ميتًا فأحياه الزعيم ؟ لكنها مشيئة الله نفذت :

أصْغَيْتُ للنبأ الرهيب، وغُصْتُ في

مَوْج الذُّهول على الأريكة حينًا

ثم انتبهتُ إلى الجموع .. وكُلنا

يستَمْهلُ الشَّك المعذب فينا

فعسى تعودُ لك الحياةُ .. وربُّنَا

بالُمعجزاتِ عليكَ ليس ضَنينا

أوَلَسْتَ مُعْجزةَ السماء ؟ وأنَّنَا

متنَا، وكنتَ أتيتَ كي تحيينا

لكنما لله أي مشيئة ؟

نفذت .. وصار الشَّكُّ فيك يقينا[٣١]

وكتب نزار قباني عددًا من القصائد عقب وفاة عبد الناصر، انطلق فيها جميعها من ذلك الموقف الأسطوري. والنظرة التي تخرجه

بعيدًا عن الناموس العام الذى يسرى علينا، وكما وصفه بأنه آخر الأنبياء عاد وكتب "السيد نام" :

السيد نام

كنوم السيف العائد من إحدى الغزوات

السيد نام

فكيف أصدق أن الهرم الرابع مات ؟

القائد لم يذهب أبدًا

بل دخل الغرفة كى يرتاح

وسيصحُو حين تُطلُّ الشّمس

كما يصحُو عطرُ التفاح

الخبزُ سيأكله معنا

وسيشربُ قهوته معنا

ونقولُ له ويقول لنا

القائدُ يشعرُ بالإرهاق

فَخَلُّوه يَغْفُو ساعات

ويتصل بتلك النظرة الأسطورية أيضًا وصف مشهد جنازة عبد الناصر فى قصائد الشعراء، فلقد تصادف مع وفاته احتفال المسلمين بذكرى الإسراء والمعراج، وعند الجنازة نقلت طائرة هليكوبتر جثمان الفقيد من القصر الجمهورى بالقبة إلى مقر مجلس قيادة الثورة، ولقد عدّ الشعراء وفاة عبد الناصر فى هذا التوقيت تكريمًا له من السماء، كما صور خيالهم الطائرة وهى تحمله وكأنها البراق يصعد إلى السماء، وتكرر هذا الوصف فى عديد من القصائد، لعل أبرزها قصيدة الشاعر صالح جودت التى تخيل فيها البراق، والملائكة، والجنة، وجبريلاً، والمسيح، وقابيل وكربلاء :

أَمَعَ الإسراءِ نادته السَّمَاءُ ... كدْتُ أنْ أحْسَبَهُ فى الأنبياء
علت الطائرة الثكلى به ... فَتَخيَّلْتُ بُراقًا فى الفضاء
كدْتُ أنْ أسْمَعَ فى موكبه ... نغَمَ الأملاك يعلُو بالدعاء
كدتُ أنْ ألمحَ فى مِعْراجه ... طيفَ جبريل يحيّى الشهداء
كدتُ أنْ أشْهَدَ فى آفاقه ... مشهدَ الجنة وَعْدَ الشهداء
قلتُ والجثمانُ يعلُو فى السَّما ... إنَّه حيًّا وميتًا فى علاء
وتمثلتُ مَسِيحًا صاعدًا ... أفَما كانَ مَسيحَ الزُّعماء
يحملُ الآلامَ عنهم، ويَرى ... أنَّهُ الفادى إذا عَزَّ الفداء

صَلَبَتْـــهُ لوعـــةٌ داميـــة   فـى خيــام اللاجئــينَ التُّعَسَــاء

طعنتــهُ يــدُ قــابيل التـــى   طَـوَت العَهْـدَ وأوْدَتْ بالإخـاء

ذَبَحَــتْهُ نَكْبَـةُ العُــرب التــى   جَدَّدَتْ فى النَّاس ذكرى كربلاء(٣٢)

فرسم الشاعر جوًا أُسْطُوريًا لمشهد الجنازة وكأنه يرفض أن تكون جنازة بشر، فلم يكتف بالإسراء والمعراج، بل أحاط الموقف كله بمشاعر وقصص دينية كى يدفعنا دفعًا إلى الاتفاق معه فيما فرضه.

وأكد الشاعر هذا المعنى الأسطورى على امتداد القصيدة، حين صوره كالقدر يقضى ما يشاء ولا ينطق عن هوى، بل هو كالأهرام والنيل والسد العالى والأزهر فقال :

نحـن لـولا المـوت قلنـا إنـه   كان كالأقدار يقضى ما يشاء

لـو سُئلنا فديـةً فـى دمـه   لافتدتـه كُـل نَفْـس بالدِّمـاء

كان لا ينطِقُ فينا عـن هـوى   أو يقولُ القول للنـاس رثـاء

كـان كـالأهرام مَجْـدًا وعَـلا   كـان كـالنِّيل انطلاقًـا ووفـاء

كـان كالسّـد شُـموخًا ونَـدى   كـان كـالأزهر طُهـرًا ونقـاء

كان فـى تاريخنـا أكـرم مَـنْ كَرَّم العِلـمَ، وزكّـى العلمـاء

وَرَعَـى الفَـنَ وحيّـا أهلـه وحبـاهُم بأكـاليل الثَّنَـــاء

وحمى الدّين ونادى بـالتُّقَى فى زَمـان قَـلَّ فيـه الاتقيـاء

واصطفاهُ ا لله للعُـرب، فمـا كان إلا خامسًـا فى الخُلفاء



عبد الناصر يكرم الملحن محمد القصبجي

ولا مندوحة لنا عن القول إن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت منعطفًا خطيرًا فى مسيرة تطور المجتمع المصرى، مثلما كانت عاملاً محوريًا أصيلاً فى تنامى كاريزما الزعامة الناصرية وتألقها. يؤكد ذلك سجل حافل بالإنجازات السياسة والاجتماعية الكبيرة، ورصيد ثرى من تأييد الجماهير ومساندتها. فتألقت زعامة عبد الناصر، فأسلمته الجماهير مقاليدها، وحبته ذاك الشرف بعدما تبين لها عمق إيمانه بحرية الوطن والمواطن، وجسارة نضاله من أجل تحرير الشعوب المقهورة، فضلاً عن ثقته الكاملة فى فعالية دور مصر بحكم الموقع والمكانة والتاريخ. «وما كان بوسع جمال عبد الناصر .. أن يتصل من هذا الدور، أو يعزف عن مباشرته .. وكان فوزه الأكبر هو ارتفاع هامة مصر، وتقلدها مكانة رفيعة وسط الجماعة الدولية، وارتداد أثر ذلك على شخصه كزعيم مناضل جسور، لا تلين له قناة، ولا يفت فى عضده هزيمة هنا أو انكسار هناك، مما عزز من كاريزما زعامته، وأكد مصداقية قيادته شعبه[٣٣].

هكذا تكونت كاريزما الزعامة الناصرية، وعلى هذا النحو نمت وتألقت، كلا مركبًا، أفرزته جدليات التفاعل بين الذات وبين معطيات المجتمع والثقافة والتاريخ، وساعدت على نموه وتألقه منجزات الثورة ومؤازرة الجماهير، وهكذا تحددت مصادر النظرة الأسطورية إلى تلك الزعامة التاريخية، التى راحت تتضخم وتتكثف حتى أضحت واقعًا حيًا سجلته قصائد الشعر.



عبد الناصر يكرم الشيخ محمد شلتوت شيخ الأزهر

وجملة القول إن المجتمع المصرى لم يعرف زعامة كاريزمية، وليت أمره، وخلبت لب جماهيره ووجدانها، وحظيت بحبها وتقديرها وولائها المطلق قبل -بل غير- جمال عبد الناصر(٣٤)، الذى قدم نموذجًا طيبًا لزعامة تاريخية فذة، شغلت الناس فى حياتها، واختلفت حولها الآراء، وستظل تختلف لأمد طويل.

هوامش الفصل الأول

(١) عفيفة الحصنى، ديوان وفاء، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٧.

(٢) السابق، ص ٣٧

(٣) السابق، ص ٣٩.

(٤) السابق، ص ٤٧ – ٤٨.

(٥) السابق، ص ٤٩.

(٦) السابق، ص ٥٢.

(٧) السابق، ص ٥٦.

(٨) السابق، ص ٦٠ – ٦١.

(٩) السابق، ص ٦٥.

(١٠) السابق، ص ٧٠.

(١١) ديوان باقات من الوفاء يقدمها شعراء الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٧٠.

(١٢) عفيفة الحصنى، ديوان وفاء، ص ٢٨.

(١٣) السابق، ص ٣٦.

(١٤) السابق، ص ٤٦.

(١٥) حلمى مرزوق، ديوان الملحمة الوطنية، ص ١١٤.

(١٦) على الجندى، ديوان ترانيم الليل، ص ٥٢.

(١٧) صالح جودت، ديوان ألحان مصرية، ص ١٨٦.

(١٨) محمد إبراهيم أبو سنة، ديوان حديقة الشتاء، الأعمال الشعرية، ص ٤٨١.

(١٩) أبو آمنة حامد، ديوان ناصريون نعم، ص ٢٩، دار النجاح، بيروت، ١٩٧١.

(٢٠) مجلة الرسالة الجديدة، العدد الأول، مايو ١٩٧١، ص ٧٤.

[٢١] السابق، ص ١٨.

[٢٢] قصيدة بعد الوداع، مجلة الهلال، عدد أكتوبر ١٩٧٠، ص ٣٠.

[٢٣] السابق.

[٢٤] كتاب تذكارى، وداعًا عبد الناصر، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ص١٢.

[٢٥] السابق، ص ٤٩.

[٢٦] السابق، ص ٦١.

[٢٧] السابق، ص ٧١.

[٢٨] ديوان باقات من الوفاء، يقدمها شعراء الإسكندرية.

[٢٩] السابق

[٣٠] السابق.

[٣١] السابق

[٣٢] مجلة الهلال، أكتوبر ١٩٧٠.

[٣٣] د. السيد الزيات، فى سوسيلولوجيا بناء السلطة، ص ٣٤٣، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٠.

[٣٤] السابق، ص ٣٣١.

الفصل الثانى

عبد الناصر الثائر

كان عبد الناصر ثائرًا، لا يعرف الدعّة، أو السكينة، كما لم يعرف المساومة أو الخضوع، استطاع أن يلهب مشاعر الجماهير بذلك الإيقاع الثورى الحاد المتلاحق، وتلك المعارك المتصلة بغير فتور.

وانصهر المجتمع كله فى بوتقة الثورة، ودار فى فلك قضاياها علي جميع الأصعدة داخليًا وخارجيًا، وجمع الناس بين الثائر والثورة، وربطوا بينهما على نحو غير منفصم، ونشأ أدب ثورى يناصر الثورة وينطلق على هدى مبادئ الثائر وإنجازاته ومعاركه، واندفع كبار الكتاب يؤيدون هذا الأدب الثورى الواقعى الجديد المناصر لقضايا المجتمع، والذى ينهض على أساس من التجربة الحية الجديدة للإنسان والشعب، مؤكدين أن هذا الأدب الثورى الجديد هو أدب المستقبل(١).

وهكذا انطلق فى أدبنا العربى الحديث منذ عام ١٩٥٦ وبفضل الثورة المصرية الظاهرة اتجاه جديد يمجد الإنسان، ويمنحه القيمة، ويعطيه دور البطولة فى كل الأحداث، وهذا الإنسان الجديد المحوط بالرعاية والاهتمام هو إنسان الثورة الذى يتحد فيكون الجماهير التى هى البطل الحقيقى فى المرحلة الجديدة، بعد أن أعلت الثورة من شأن الفرد والمجتمع(٢).



عبد الناصر مع الرئيس محمد نجيب

وانخرط في هذا الاتجاه الجديد شعراء كثيرون، جُلّهم من الشباب، شكلوا تيارًا قويًا واسعًا، احتل مكانه الو اضح تحت شمس الأدب، وسجل شعراؤه أسماءهم فى الحياة الأدبية مثل محمد كمال عبد الحليم، وصلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطى حجازى، ومحمد مهران السيد، وعبد الرحمن الشرقاوى، وكيلانى حسن سند، وكامل أيوب، وأمل دنقل، ونجيب سرور وغيرهم.

وآمن هؤلاء الشعراء بأن الفن الأمثل هو الفن الثورى، صاحب الدور القيادى فى المجتمع، وينشأ هذا الدور استجابة لظروف المرحلة التى تقتضى من الفنان التزامًا بقضايا أمته وعصره، واعتناقها والصدور عنها، رفضًا للظلم ونضالاً ضد القوى الاجتماعية الفاسدة، وإيمانًا بقيمة التضامن فى القضاء على أعداء الوطن والثورة داخليًا وخارجيًا، وتأكيدًا لأهداف الثورة، ورغبة فى بناء المجتمع الجديد.

ونجح عبد الناصر الثائر، بفضل أفكاره الثورية، فى أن يحدث ثورة فى شتى مناحى حياة المجتمع، ومنها الشعر، فقد آمن الشعراء بأفكاره ومبادئه، وصار الشاعر ثائرًا مناضلاً يدافع عن قضية، ويلعب دورًا قياديًا، ويسعى إلى تثوير المجتمع، ويحفظ ركب الثورة من كل سوء.

لقد صار الشاعر ملتصقًا بـأرض الواقـع بكـل قـوة و لم يعـد مجرد مبدع حالم هـائم فـى ملكـوت الكـون، وبلـغ الأمـر بالشـعراء درجة جعلتهم يرون فى إسـهامهم بـالفكر والقلـم فـى حيـاة المجتمـع والدفاع عنه أمرًا غير كاف، فراح الشـاعر يحلـم بسـاعة يحمـل فيهـا السلاح بيده ليقاتل الأعداء ويسد بجسده طريقهم إلى الوطـن، فهـذا عبد الرحمن الشرقاوى يأسف لأنه لم يشترك بجسده ويده فى مقاومـة العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ بعـد عجـزه عـن العـودة مـن الخـارج إلى مصـر بسـبب العـدوان، وانقطـاع خطـوط المواصـلات الدولية، فأصابه الغيظ والحزن والكمد، فقال:

والغيظ من قطع الطريق

والحزن إذ أني حرمت من اشتراكي في المعارك

قد كنت أحلم أن يكون دمى فداء الآخرين

قد عشت أرجو أن أخوض المعركة

لا بالقلم

بل باليمين

قد عشت أحلم أن أسد بجثتي ذاك الطريق

كي لا يمروا[٣]

فالشاعر الثورى صار يرى أن الموقف الثـورى كـل متضـافر يلتحـم فيـه القـول بـالفعل، فـالموقف الثـورى لا يعـرف التجزئــة أو التقسيم.

فالشاعر يؤمن بالثورة ويغنى لها، لكنه يشترك بيده فى ترجمة الأفكار والأهداف إلى حقائق تنبض وتنهض على أرض الواقع.

وهكـذا يعلـن أحمـد عبـد المعطـى حجـازى إيمانـه بـالثورة، والتحامه بالجماهير الظافرة التى دفعتها قيم الثورة إلى العمـل والحيـاة الكريمة، وقد فتحت أمامها أبواب السيادة والعزة، ويرى ذلك ظفـرًا جديرًا بالإثبات ليخلد على الزمن :

فلتكتبوا يا شعراء أننى هنا

أزاحم الجموع

أخوض بحرًا أسمر المياه

أخوض بحرًا من جباه

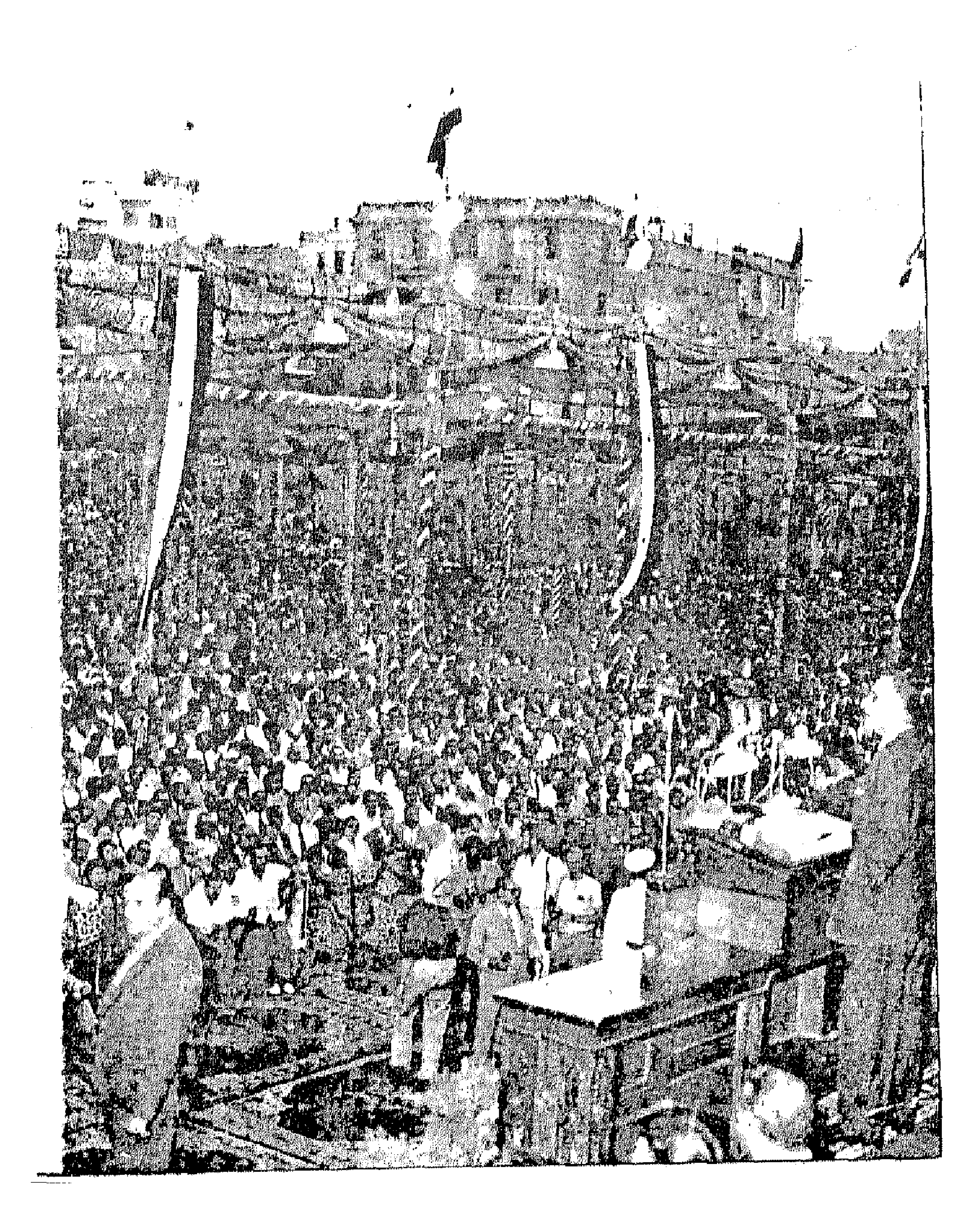
بحر الحياة -ما أشد عمقه- بحر الحياة

طوفانه يا شعراء سيد مهيب

يمضى فتنحنى السدود

ويفتح الضياء ألف كوة عليه

ويطلق البوق النحاسى النشيد(٤)



عبد الناصر يتحدث إلى الشعب

واجتهد الشعراء فى تصويرهم لجماهير الثورة الفتية التى تقهر المستحيل، فالحديث عن الإنسان دائمًا متصل بالإنسان الثورى الجديد، كما أنه مرتبط بشخص الزعيم قائد الثورة الذى يدفع الجماهير ويوحد العرب، وهو أيضًا حديث يرفع شعارات الثورة مثل الحرية والعدالة والسلام، وهى الشعارات السياسية ذاتها التى رفعها الزعيم الثائر وألح عليها، وراحت ترددها الجماهير فى كل مكان.

فلتكتبوا يا شعراء أننى هنا

أشاهد الزعيم يجمع العرب

ويهتف (الحرية .. العدالة .. السلام ..)

تلتمع الدموع فى مقاطع الكلام

وتختفى وراء الحوائط الحجر

....

يا شعراء يا مؤرخى الزمان

فلتكتبوا عن شاعر كان هنا

فى عهد عبد الناصر العظيم(٥)

فالشاعر يرفع الشعار الثورى ويغنى له ويتغنى به، ولا يقف عند ذلك، بل يعتز مباهيًا أنه عاش فى عصر عبد الناصر العظيم،

ويصرخ بذلك كى يُسْمِع الدنيا جميعًا. وحتى تسجله صفحات التاريخ فخرًا واعتزازًا.

ويجاهد الزعيم الثائر لتحقيق الجلاء وطرد المحتل الغاصب، ويعلن أن على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل، وتعيش الجماهير أمجد المشاعر الوطنية بجلاء الجنود البريطانيين عن مصر فى يونيو ١٩٥٦.

وتخفق القلوب كلها فرحًا لرفع العلم المصرى على مبنى البحرية ببورسعيد، إعلانًا للاستقلال وتتويجًا لكفاح الشعب، وتحقيقًا لوعد الزعيم الثائر، وتأكيدًا على عزة الثورة الشعبية، وفى هذا انتصار للحرية والحياة، وتحقيق لأمل عزيز طالما ناضلت الجماهير من أجله، ويفرح صلاح عبد الصبور برفع العلم المصرى فيقول فى قصيدته "مرتفع أبدًا" :

لترتفع، لترتفع، يا أيها المجيد

يا أجمل الأشياء فى عينى أنت يا خفاق

يا أيها العظيم، يا محبوب، يا رفيع، يا مهيب

يا كل شىء كان فى الحياة أو يكون

يا علمى، يا علم الحرية(٦)

وهبّ الشعراء يمجدون الثائر بطل الجلاء، وقد أزاح عن

صدر مصر كابوسًا كانوا يظنونه لا يزول وتأججت روح الثورة ومشاعر الفرحة فى صدرو الجماهير، وتتالت قصائد الشعراء تحيى بطل الجلاء وتكيل له أمجد الصفات، فهو محقق الآمال البعيدة، والمظفر، والمنصور، النور بين يديه، والسعد يحيطه، له فى العيون جلال وبهاء، وفى جبينه أمارات الطهارة والتقى، وله خصال الحزم والتوفيق والرأى والتدبير يقول على الجندى :

بطلَ الجلاء ومن به نلنا المنى　　　أنت المظفَّر فى الوغى المنصور

النور بين يديك يَسْعَى جَهْرَةً　　　واليمن خلفك والسعود يسير

وعلى جبينك للطهارة وَسْمَةٌ　　　وجلالة -ملء العيون- ونور

والحزم والتوفيق حيث توءمنا　　　والرأى والتدبير حيث تشير(٧)

لقد حقق بطل الجلاء ما عقدته عليه الجماهير من آمال عراض، وكيف لا وهو صاحب الحزم والتوفيق والرأى والتدبير، فارتفع العلم المصرى فى بوسعيد تحوطه خفقات القلوب، وقد كان لزمن طويل أملاً طالما داعب عيون المصريين، فكان رفع العلم المصرى تحقيقًا لوعد البطل الثائر، ورمزًا للعزة وتأكيدًا لحياة السيادة بعد جلاء المحتل، واستعادة لمكانة مصر بين الأمم. يقول أحمد عبد اللطيف :

فوق القناة تجلَّتْ رفعة العلم　　　تحكى لنا قصة طالت ولم تنم

تحكى لنا قصة الأجداد رائعة | فيها الجهاد يصارع بغى منتقم
كان الجلاء له رمزًا لعزتنا | حتى سعدنا على فيض من النعم
رفع الرئيس لنا علمًا نمجده | فيه منانًا ونفديه بحر دم
صرنا نعيش تنادينا سيادتنا | حتى ننافس سادة الأمم(8)

ويسعد عبد العليم القبانى بالحرية التى أطاحت بالقياصرة والدخلاء، والذل والألم المكبوت، وأعادت لنا الكرامة والنور والنصر :

اليوم لا قيصر عات ولا خدم | ولا دخيل له فوق الربى علم
اليوم عادت إلى الوادى كرامته | واستشرف النُّورَ مَنْ أَهْوَتْ به ظُلَم
مضى الزمان الذى إمساوه رهب | وصبحه كهلال الشك متهم
تفجر الألم المكبُوتُ وانطلقت | من فورة الوعى فى أعماقنا حمم
ومن أحس دبيب الذل فى دمه | أولى به النصر أولى به النعم(9)

وأعلن الثائر عبد الناصر تأميم قناة السويس المصرية ليسترد لنا حقًا سليبًا، وليؤكد العزة والسيادة الوطنية، وحتى تنهض مصر بتنفيذ مشروع السد العالى، فرقصت قلوب المصريين فرحًا بتأكيد السيادة المصرية فى كل شبر من أرض الوطن، وكسر شأفة الاستعمار والاحتكارات العالمية، وتعاظمت مشاعر الإحساس بالقوة فى نفوس الثوار.

وجن جنون الدول الاستعمارية العظمى، وتآمرت إنجلترا وفرنسا مع إسرائيل لغزو مصر واحتلال القناة، وتأديب الثائر، وكسر شوكة الثورة، وتابعت الجماهير بكل الحماسة الأحداث التى تلاحقت عقب قرار التأميم، مثل عقد مؤتمر لندن، وانسحاب المرشدين الأجانب من القناة، وإنذار الدول الكبرى لمصر، وغيرها من الأحداث التى بلغت قمة تصاعدها بوقوع العدوان الثلاثى.

وذهب الثائر إلى الجامع الأزهر رمز القوة الدينية الهائلة ليعلن من فوق منبره أننا سنقاتل ولن نستسلم، وسندافع عن أرضنا حتى آخر رجل وآخر قطرة دم، فاشتعلت مشاعر الناس حماسة ووطنية وإصرارًا على دحر العدوان. وأبرز الشعراء موقف الثائر قائد الجماهير فى هذا الموقف العظيم.

فى الجامع الأزهر المعمُور صَيْحَتُه … دوت عليه فهَزَّت ثابت العمد
قد قال قولته، شدت عزائمنا … "إنا نقاتل" فى حزم وفى كبد
مادام قد فرض الباغى مقاتلة … فيها الوقود لدينا روح متقد
إنا نجالده حتى يغادرنا … إيماننا ثابت بالصبر والجلد
قلنا : فداك دماء فى الوغى طَهُرَتْ … والوالدُ المفتدى فى نُصْرَةِ الولد[١٠]

وكتب الشاعر محمد المهدى المجذوب عددًا من القصائد انفعالاً بالعدوان الثلاثى وأحداثه توجه فيها إلى الثائر بطل النيل،

يصوره ويمجده، ويشد أزره ويؤيده، فى تصديه للاستعمار، ومن ذلك قوله :

فيا بطل النيل، ويا روحه ... ويا فارسًا يَشْتَهيه الخيالْ

صلاتُكَ فى الجامع الأزهرى ... صلاة النبى لدى المعركة

يبايعه الفئة المؤمنون ... على قتلها الفئةَ المشركة

ونخرج للفئة الجائرة ... وأعلامنا حرة ثائرة

نلاقى منيتنا الحاسرة ... بأوجهنا الحرة السافرة

ونستر بالدم أعراضنا ... لآلئ فى اللجج الزاخرة

وهيهات أن تسقط القاهرة

محال محال محال محال(١١)

وكان من نتيجة دحر العدوان الثلاثى وهزيمته أن صار عبد الناصر رمزًا عالميًا للنضال ضد الاستعمار، وصارت دعوته دعوة عالمية للتحرر ونبذ الاستعمار، وتبعث الشعوب المقهورة خطاه المناضلة ضد كل أشكال التبعية والإذلال فى كل أنحاء العالم واشتعلت حماسة المصريين، وتأجج الشعور الوطنى نتيجة الإيقاع السريع المتلاحق للأحداث والتهب الشعراء بشعارات الثائر الذى أعلن انخراطه فى الثورة العالمية ضد الاستعمار وأعوانه، واتحد الموقف النضالى لكل الثائرين، وصارت معاركنا جزءًا من منظومة الثورة

الشاملة ضد الاستعمار فـى كـل مكـان وأولهـا الأرض العربيـة التـى تقاوم الاستعمار، و لم يفصل الشـعراء بين مقاومـة العـدوان الثلاثـى على مصر وبين التصـدى للاسـتعمار فـى كـل مكـان مثـل فلسـطين والجزائر والملايو وأفريقيا وآسيا. فهذا محمد كمال عبد الحليم يهـدد العدو، ويؤكد تمسكه بأرضه ووطنه، ويعلى قوة الثورة، فقوة الثـورة واحدة، وحركة التحرير عامة :

دع سمائى، فسمائى محرقة

دع قنالى، فمياهى مغرقة

واحذر الأرض فأرضى صاعقة

هذه أرضى أنا

وأبى قال لنا

مزقوا أعداءنا

....

أنا عملاق قواه كلُّ ثائر

فى فلسطين وفى أرض الجزائر

والملايو، وشعوب كالبشائر

تنبت الأزهار من بين المجازر(١٢)



أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند تبكى تأثرًا للقاء عبد الناصر

لقد تألقت زعامة جمال عبد الناصر الثورية، و لم يعد زعيمًا ثائرًا لمصر وحدها، بل قائدًا لثورة التحرر الوطنى فى الأمة العربية، وزعيم الثورة الوطنية فى كل دول العالم الإسلامى والعالم الثالث، وكان عبد الناصر الثائر واعيًا لخطواته مدركًا لمداها، وضرورة تتابعها، ولذا قال منذ بداية ثورة يوليو ١٩٥٢ : «لن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء، لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان. أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضًا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟ أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالمًا إسلاميًا تجمعنا وإياه روابط لا تقر بها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ ... كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا، لا نستطيع مهما حاولنا أن ننساها أو نفر منها ... إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولية مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه، وإن ظروف التاريخ أيضًا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه. ولست أدرى لماذا يخيل إلىّ دائمًا أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورًا هائمًا على وجهه يبحث عن البطل

الذى يقوم به، ثم لست أدرى لماذا يخيل إلىّ أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف منهوك القوى على حدود بلادنا، يشير إلينا أن نتحرك، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فإن أحدًا غيرنا لا يستطيع القيام به»(١٣).

هكذا كان عبد الناصر يؤمن أن القدر قد اختاره لأداء هذا الدور، وكان يعتقد فى داخله أنه الشخصية المصطفاه لأداء البطولة التاريخية التى أرهقها التجول فى العالم بحثًا عنه. لقد اتخذ من التاريخ القدوة والمثل فى أن البطولة المجيدة يصنعها الأبطال بأنفسهم فى ظروف حاسمة، وأن البطولة الهائمة على وجهها تبحث عن بطل قد وجدت فيه ضالتها أخيرًا.

فلا مشاحة فى أن بطولة عبد الناصر، وأداءه لدور قيادى عالمى قد انبثقا من داخله أولاً، إيمانًا راسخًا، ويقينًا أكيدًا بأنه المهيئ لهذا الدور التاريخى، وظهر ذلك واضحًا فى كلماته وشعاراته ومواقفه، فقد كانت الثورة المصرية بالنسبة له نقطة البدء، لينطلق بعد ذلك إلى دوائر أوسع تنتهى بالثورة العالمية.

ومنذ هذا التاريخ ظهر فى حياتنا جهاز إعلامى قوى مثير، قادر على زرع أفكار وحقائق ثابتة، جهاز إعلامى خطير قادر على

صنع اهتمامات الجماهير وحشدها وتوجيهها إلى حيث يريد، وكان ذلك دليلاً على قوة تيار الثورة واتساعه، وقدرته على تغيير الواقع، وصنع واقع جديد. ومنذ هذا التاريخ أيضًا برز الثائر عبد الناصر رمزًا عالميًا للثورة ضد الاستعمار، وضده هيمنة الدول العظمى على مقدرات الشعوب الصغيرة، وأبرز الشعراء صورة الثائر العظيم فى شتى مواقفه ومواقعه، وأبرزوا شعاراته وأفكاره حتى أضحت مادة أساسية للشعر العربى، فهذا شاعر لبنان محمد حبيب صادق يقول فى قصيدته (فارس العرب)[١٤] :

عالمًا فى بواطِنِ الكَرِّ والفَرِّ جلودًا لا يألونَ اقتحامًا

تفتدى المتعبين بالراحة الكبرى وتجلُو عن القلوب السَّقَاما

سل موالى الإقطاع فى أرض مصر من بنى عِزّها وأرسى الدّعاما

من أجار العمال من ليل ذل فانبروا للحياة صيدًا كرامًا

وسل الضاربين فى التيه عنه ضوءهم كان، ماءهم والطعاما

لم يَلُحْ للجموع حتى رأته حلمها الشهم، زندها الصمصاما

عاهدتك الجهاد فى الزَّعْزَعِ المر اقتداء وأسلمتك الزماما

سيد القول إذ يكون ابتداء لكفاح أو أن يكون ختاما

قولك الفعل فى قرار المعانى قولك الفصل إن أردت انحساما

وهذا شاعر اليمن إبراهيم الحضرانى، يقول[١٥] :

صمــودك الفذ والأحداث عاصفة   مــرت بنا مثل موج البحر يلتطم

علمتنا كيف تسمو النفس صاعدة   بالفرد، والفرد قد تسمو به الأمم

وتبارى الشعراء فى تسجيل مختلف المواقف والمعارك، بل إن منهم من أوقف عطاءه الشعرى على هذا الجانب الـذى رأوه متسقًا مع طبيعة الموقف الثورى الجديد للشاعر الجديد.

واندفع الشعراء يمجدون الثائر ويرددون شـعاراته مثـل (إننـا أمة تحمى ولا تهـدد، تصـون ولا تبـدد) ومثـل (نسـالم مـن يسـالمنا، نعادى من يعادينا) و(تشد أزر الصديق، تـرد كيـد العـدو) و(تؤكـد العدل وتدعم السلام) وغيرها من الجمل السائرة التـى كـان يطلقهـا الثائر، فالشاعر يصف الأمة بقوله :

قـام البنـاء بهـا من عـزم ناصرها

لا ترتجـى غير توفيـق لبانيهـا

أجـرى بها خيـرات عـزٌ جانبهـا

حتى تجلـى عليها فضـل مجريها

فـى دولة لم (تهـدد) غيرهـا، صعدت

ولم (تبدد) و(تحمى) ظهر حاميها

(تقوى) على الدهر فى تحقيق وحدتها

(توحد) الرأى لا (تفريق) يطويها

(تسالم) الحر لا (تفريط) يدفعها

إلى التخلف بل تبغى بأيديها

(تشد أزر صديق) رام عزتها

(ترد كيد عدو) رام يرميها

(تؤكد العدل) فى صدق تريد به

(دعم السلام) لمن فيه يواليها[١٦]

وأبرز الشعراء شخصية عبد الناصر ثائرًا محبوبًا، تلتف من حوله الجماهير حبًا وتأييدًا، ولذا فقد صنع المعجزات وأزرى بالأمجاد جميعًا بعد أن أقام مجدًا عريضًا لا يطاول، يقول الشاعر محمد برهام :

الكل خلفك لا حزب ولا شيع ... وهم دعاء إذا انفضوا أو اجتمعوا

يا ثائرًا تحت جنح الليل فى ثقة ... وهمة بجسيم الأمر تضطلع

يلوذ بالصمت والأقدار ناطقة ... يحدد الخطو، والآمال تتسع

حتى رمى، ورمت أيد تسانده ... فبارك الله ما جاءوا وما صنعوا

جمال أزريت بالأمجاد أجمعها والريح عاتية تذرو وتقتلع

أقمت مجدًا عريضًا لا تحيط به عزائم، فإذا رامته يمتنع

يا باني السد جلّت آية عجب وأنت للآى خلاق ومبتدع[17]

ويتصل الحديث عن الثائر البطل دائمًا بالحديث عن الثورة الماجدة، التى اشتعلت فنشرت السلام وحققت الأمل :

فاعجب بثورة حق حيثما اشتعلت كانت سلامًا على الأوطان يندلع

عيشى لألف من الأعياد هانئة وأنت مغنى أمانينا ومنتجع

وتغيرت لغة الخطاب الشعرى، وصار الشاعر يعبر فى قصائده عن شعور فياض بالعزة والكرامة والتميز، بفضل ما تجسد على أرض الواقع من شعارات الثائر العظيم، فهذا محمود غنيم يعلن على الدنيا أن مصر حرة، وحاكمها أحد أبنائها الكادحين :

أيها الشرقُ اذعْهُ نبأ يقرعُ الآذانَ فى الغرب صداه

أنَّ مصر حُرَّةٌ فى أرْضها شعبها يُبرم فيها ما يراه

لم تعد مصر طعامًا سائغًا لجياع الغرب من شاء طهاه

لم تعد تحكم مصرًا أسرة تشترى العرش بإحناء الجباه

دولة حاكمها من أهلها شعبها الحر من الشعب اصطفاه

كادح ما أترفته نعمة عرك الدهر طويلاً وبلاه

مـــا رأى فـــى مهـــده ملعقـــة   مـــن نضـــار خـــالص تمـــلأ فـــاه

لا على سـلطانـه يخشـــى ولا   يرهب الفقر إذا الفقر اعتـــراه[18]

لقد تجسدت فى قصائد الشعراء فكرة الثـورة الشـاملة، فلـم يعد الشاعر يرفض المستعمر ويصب غضبه على الاستعمار فحسـب، بل يتحدث عن مقاومة الاستعمار فى كل دولة مثل الكونغـو وغانـا والجزائـر وغيرهـا. ويمجـد أبطـال الثـورة والتحريـر مثـل لومومبـا ونكرووما وغيرهما، لكن عبد الناصر ظل النموذج الأعلى للثائر ذى الصوت القوى المـدوى لتحريـر الشـعوب المقهـورة. يقـول الشـاعر محمد الفيتورى :

يا وطنى

عبارة الناصر من ورائه

مظلة على الأفق

وسيفه المهند الصقيل

فى لون الشفق

وجبهة الناصر صانع البطولات

تكاد لا ترى من العرق

وددت لو قبلت تلك الجبهة السمراء

فهى سحابة ترش الأرض بالنماء

وهى حمامة بيضاء

طارت ألف ميل(١٩)

وهكذا أفاض الشعراء فى إبراز شخصية الثائر الـذى ينهـض بالأعمال الماجدة وغير التقليدية، والـذى يتوجـه بندائـه إلى الجماهـير وليس إلى مجلس أو مؤسسة كما جرى العرف.

ومن الحق أن نقول إن الرئيس الثائر حين اتخذ مـن الجماهـير شرعيته وجعل منها مرجعيته فإنه بذلك قد نجـح فـى أن يقيـم نظامـه على أساس من مقولات ضخمة تدغدغ خيـال ووجـدان الجماهـير، لكنها فى الواقع والحقيقة غير محددة ماديًا أو علميًـا علـى نحـو يمكـن إدراجه تحت أى تصنيف فكرى أو بشرى، فمثلاً حـين أصـدر الثـائر قرارات التأميم لعدد كبير من مصادر الثروة والإنتاج لدى المواطنـين، قال إن الملكية قد انتقلت إلى الشعب، وهلل الناس وفرحوا، فى حين أن الشعب لم يمتلك شيئًا، وانتقلت الملكية إلى الدولة، وهو مـا يمكـن أن يدرج اقتصاديًا تحت عنوان رأسمالية الدولة. ودارت الأيام وصـار

الشعب الذى لم يمتلك شيئًا مسئولاً عن تسديد ديون تلـك المنشـآت الاقتصادية التى لم يمتلكها.

والأمر نفسه نراه فى كلمة الجماهير التـى طالما توجـه إليهـا الثائر وخاطبها وعبر عنها وانطلق فى قراراته علـى هـدى منهـا، فـلا أحد يعرف من هى هذه الجماهير، وكيف يمكن أن تجتمع معًا، بدليل أن الثائر حـين ألغـى التنظيمـات السياسـية السـائدة وابتكـر كيانـات سياسية جديدة تجسدت آخر الأمر فى شكل الاتحاد الاشتراكى، قال إنه يعبر عن تحالف قوى الشعب العامل، وعلى الرغم من هـذا عجـز الناس جميعًا عن تعليل سبب تحديـد هـذه القـوى دون غيرهـا، كمـا عجزت الدولة والشعب معًا عن تعريفها فى تحديد قاطع.

ولكن الشعراء غنوا للثائر، كما غنوا للجماهير التـى يناديهـا وهو يعلن أن الحكم للشعب الذى صار يحكم نفسه بعد أن تحرر مـن نير الاستعمار والقصر والملكية وغيرها :

ثـار الأبــى وفيــه ســرّ عزتنــا ... نــادى فكنــا لــه قلبًــا وآذانًــا

نادى (الجماهـير) أن تحيـا معمـرة ... حتـى تحيـل خـراب الظلـم عمرانـا

قـد قـال قـول شـجاع مـاجد بطـل ... (الحكـم للشـعب) لا نرضـاه قربانـا

إعلاننـا (حقنـا فـى حكـم أنفســنا) ... من عزة الحق و(التحريـر) قـد حانـا

صار النظام (بجمهورية) صلحـت   فيها التقينا، على الإخلاص لقيانا[٢٠]

وكلما أطلق الثائر شعارًا سارع الشعراء كى يسجلوه فى قصائدهم تأكيدًا للمد الثورى، وحين قال : «إن على الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل» قال الشاعر :

قال الرئيس لمن قد عـاش محتـالا   (ارحـل) ودعنـا وإلا كنـت قتـالا

طالت علينـا عهـود الظلـم باغيـة   وأنـت (عهـد بغيـض) بيننـا طـالا

(احمل عصاك)ولا ترجع لنا أبدًا   يا مدّعى الحق، كم أظهرت إخلالا[٢١]

وحين تحقق الجـلاء الإنجليزى عـن مصـر، ورحلـت قـوات الاحتلال، مجّد الشعراء الثائر الـذى طـرد المحتـل القـوى، ورفـع علـم بلاده حرًا، وكرروا ألفاظه وشعاراته السياسية، مثل :

قلنـا لـه قولـة هـدّت عزائمـه   (احمل عصاك) على كتف يغادرنـ

قمنا (نثور) لنطـرده علـى عجـل   لكنـه قـام مغـرورا، وقاومنــ

وفى (القناة) تجلت مـن بواسـلنا   مبـاهر النصـر تخزيـه، فسـالمذ

قد نكس الرأس فى علـم ينكسـه   ثـم اعتلـى علـم فيـه مفاخرنـ

وقبل (النـاصر) المـأمول جبهتـه   ثم انثنينا نناجى فيه (ناصرنـا

نجم التحرر فيه المجد مؤتلـق   يسعى إلينا وروح ا لله ساعدنا[٢٢]

واهتم الشعراء كثيرًا بكل الألفاظ والتعبيرات السياسية التى أطلقها الثائر وكانت دائرة فى هذه المرحلة، لأنها كانت تعبيرًا عن الثورة وقوتها، والولاء لها، وتعبيرًا عن الواقع الثورى الملتهب فراحوا يتحدثون عن (الدفع الثورى) و(اليد التى تبنى)، وغيرها من الألفاظ والتعبيرات التى أعلنتها الثورة، وأكثر الثائر من استخدامها مثل :

واليــوم نحيــا آمنيــن أعــزة والشعب مسعود بصدق ولائه

فى (دفعه الثورى) يبنى مجده (بيد) الأمان لخيره ورضائه(٢٣)

وبفضل شعارات الثائر واستجابة الناس لها صار الشاعر مشغولاً بتمجيد الثورة وإعلائها، وبيان أنها ثورة للجماهير تمحو عنهم العار، وتصنع لهم الواقع المجيد، وتزهر فى غدهم الأمل الرائع والموال الجميل، وتحطم تماثيل السادة، وتعلى شأن الكادحين، يقول عبد الوهاب البياتى فى قصيدته (إلى عبد الناصر الإنسان) :

أيا جيل الهزيمة، هذه الثوره

ستمحو عاركم، وتزحزح الصخره

وتنزع عنكم القشره

وتفتح فى قفار حياتكم زهره

وتنبت أيها الجوف الصغار برأسكم فكره

سيغسل برقها هذى الوجوه وهذه النظره

ستصبح هذه الحسره

جسورًا وقناديل

زهورًا ومناديل

ويصبح باطل الحزن أباطيل

وتزهر فى فم الشعب المواويل

ستهوى تحت أقدامك يا جيلى التماثيل

وتسقط عن رؤوس السادة التيجان

وتجرفها رياح الكادحين لهوة النسيان(٢٤)

وبعد أن يبرز الشاعر الثورة على هذا النحو الرائع الذى يدغدغ مشاعر الكادحين والمحرومين والمسحوقين، وكل المتطلعين إلى غد أفضل، ينتقل إلى عبد الناصر الثائر الذى يشبه البرق والنهر، ويأتى مع التاريخ والقدر ليهز سلاسل التاريخ ويصنع تاريخًا جديدًا للشرق والإنسان، ويدعو الشعراء جميعًا إلى أن يوجهوا قصائدهم إلى المارد الثائر الذى جاء ليغير وجه الحياة من حولنا :

فهذا البرق لا يكذب

وهذا النهر لا ينضب

وهذا الثائر الإنسان عبر سنابل القمح

يهز سلاسل التاريخ

مع المطر

مع التاريخ والقدر

ويفتح للربيع الباب

فيا شعراء فجر الثورة المنجاب

قصائدكم له، لتكن بلا حجاب

فهذا المارد الثائر الإنسان

يزحزح صخرة التاريخ

يوقد شمعة فى الليل للإنسان

أما الشاعر السورى محمد عمران فيصف الرئيس الثـائر بأنـه حين ينادى (يا إخوتى) يهل صوته كالعبير المسحور، والأفق الطيب

والفجر الندى، ويسكر الناس على حروف كلماته فتبقــى كـالضوء، كالشلال، كالرعد، كالبركان، كالصور ينفخ فى قبور الراقدين :

يهل صوتك يا جمال

فجرًا ندى الضوء، ريان الظلال

أفقًا من الأطياب، مسحور العبير

واحات ظل فى الهجير

"يا إخوتى يا كادحين

يا زاحفين إلى النهار

اليوم فجركم المبين

اليوم ينتصر النهار"

ونظل نرتشف الحروف المسكرة

حتى تغيب

ويعود صوتك يا جمال

كالضوء، كالشلال، يدفق كالجبال

كهدير نبع في الصحارى الظامئات

كالرعد، كالبركان، كالقدر العتيد

كالصور ينفخ في قبور الراقدين

وتهب ضيعتنا، وتسمر الوجوه الشاحبة

والعائدون من الحقول يزغردون

واللاهثون الميتون

يستيقظون ويرقصون

في يوم بعثهم الجديد[٢٥]



عبد الناصر يستقبل الملك حسين بن طلال

لقد روى عبد الناصر بمواقفه الثورية عطش الجماهير إلى الثورة ضد كل مظاهر الكبت والتخلف والحرمان، فصارت الثورة حديث الشعر، أما شخص الثائر عبد الناصر فقد غدا النموذج والمثال، حتى غدا الشاعر يتباهى بأن بلاده بلاد جمال، يقول الشاعر رفيق الخورى :

لأن بلادى حقول

تموج سنابلها الخيّره

وتسحر ليلاتها المقمرة

ويسم زيتونها للدوالى

لعرس القطاف، لعيد الغلال

يريدون إغراقها بالدخان

ببارودهم .. بليالى الخطر

لأن بلادى بلاد الرجال

بلاد النضال

بلاد جمال

ستبقى بعين الطواغيت شوكة

وتبقى بلاد العصافير والبرتقال(٢٦)

وراح الشعراء يؤكدون له إيمانهم بمبادئه، وسيرهم على طريقه، فلم تعد شعاراته الثورية وقودًا يلهب نفوسهم، بل صارت منهج حياة، وموقفًا أبديًا ضد كل الغاضبين. يقول الشاعر السوداني الهادى آدم :

قسمًا بوجهك لن نعيش وبيننا   متسلط بالدس والإيقاع

وبمنطق الجبروت تأخذ حقنا   قسرًا وليس بمنطق الإقناع

إنا كما علمتنا، وأردتنا   لن تستكين لواقع الأوضاع[٢٧]

وأفاض الشعراء كذلك فى تصوير شخصية القائد الثائر، وإبراز الولاء له، وتعظيمه وإسباغ الصفات عليه، والتأكيد على صفات الصدق والإخلاص والوداد له، فهو الناصر بعد نصر الله :

نفدى الذى قد صار يفدينا ويحفظنا   من كل طاغ، وبالإيمان يرفعنا

نفديه بالروح فى صدق وإخلاص   مع الوداد، وحب المجد يجمعنا

من ذا سواه نعاهده ونقدره   وهو الذى -بعد نصر الله- ينصرنا

فى جمهوريتنا نرعى العهود له   فى كل بادرة نلقاه يعهدنا

إن الرئيس قد اخترناه فى ثقة   من دفع ثورتنا بالخير يسعدنا[٢٨]

والحديث عن هذا الجانب فى شخصية عبد الناصر، يضعنا أمام حقيقة أساسية التزم بها طويلاً فى حكمه، وكانت سببًا فى الخلاف السياسى الكبير معه -كما يظهر فى الفصل القادم- تلك

هى الشرعية الثورية التى التزم بها دون حاجة إلى الالتزام بقانون أو دستور أو عرف أو تقليد، فالثائر كان فى حاجة إلى بناء مجتمع جديد، وبناء إنسان جديد، هما مجتمع الثورة وإنسان الثورة، ومن ثم كانت القوانين وغيرها تمثل عائقًا أمام الدفع الثورى المنشود، فضرب بها جميعًا عرض الحائط، والتزم بنوع جديد من الشرعية هى الشرعية الثورية، فالدولة فى حالة ثورة، والثورة لها منطقها الخاص الذى يغاير منطق القانون والدستور، وكليهما يضبط إيقاع الجماهير وينظم الحركة السائدة فى المجتمع.

ولما كانت الثورة تبنى مجتمعًا جديدًا وإنسانًا جديدًا، تكون الأمور التقليدية والمستقرة غير صالحة لها، فالثورة فى ذاتها خروج على التقليدى والمستمر، ومن هنا اعتمد الزعيم على الشرعية الثورية التى أتاحت له أن يبطش بأعداء الثورة والمخالفين لها، كما أتاحت تصنيف المواطنين إلى ثوريين، وعملاء، ورجعيين، ورجعية جديدة والثورة المضادة، وغيرها من التصنيفات التى شاعت فى هذه المرحلة.

لقد كان عبد الناصر زعيمًا لأول ثورة كبيرة ناجحة فى العالم العربى فى العصر الحديث، «فمنذ إندلاع الثورة العرابية فى ٩ من سبتمبر ١٨٨١ التى بدأت بحصار الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى لقصر عابدين، قصر الخديو توفيق، لم تقم فى الوطن العربى ثورة انفجرت ثم استقرت، ثم غيرت الأمور فى الإقليم العربى الذى

اندلعت فيه تغييرًا اختفت له المعالم الرئيسية فى هذا الوطن»[٢٩].
فقد غيرت من أمور مصر أكبر أنظمتها، وأبرز سماتها، ومظاهر أقدم خصائصها، فقد أزالت النظام الملكى، وأطاحت بالملكية الزراعية من فوق عرضها العالى، وقطعت دابر النفوذ الأجنبى فى كل مجالاته، وجعلت التعليم مجانيًا فى جميع درجاته، فتغيرت البنية الاجتماعية حتى احتل قمة المجتمع أبناء الطوائف التى حرمت قبلاً من التعليم. ومن ثم، فإن الثورة المصرية قد غيرت الهياكل الخارجية للمجتمع، كما غيرت أيضًا من جوهره.

واتسعت دائرة الثورة خارج حدود مصر، فكان أثر الثورة المصرية عميقًا وواسع النطاق فى طول الوطن العربى وعرضه، فوجدت جميع حركات التحرر من الاستعمار الدعم والتأييد المادى والمعنوى من الثورة المصرية، وسقطت رايات الاستعمار فى الجزائر وليبيا والعراق واليمن وعدن، وزالت القواعد الأجنبية فى الحبانية فى العراق، وفى هويلس والعضم فى ليبيا، وفى عدن، كما زالت فى السويس، فانتصر بذلك تيار التحرر والاستقلال بعد سنوات العبودية والإذلال.

ثم قاد الزعيم الثائر حركة الثورة العالمية، وظهرت حركة عدم الانحياز بزعامته مع تيتو ونهرو فانزعج الاستعمار العالمى، لكن

الشعوب المقهورة اتخذته نموذجًا ومثالاً، فصار عبد الناصر بطلاً شعبيًا بكل المقاييس.

لكن أحدًا لم يكن ليقبل أن تسحق الثورة أبناءها، وأن يكون حصاد الثورة علينا وليس لنا وهذا ما فتح الباب واسعًا للخلاف مع عبد الناصر، وهو خلاف بلغ حد العداء.

ولقد اتفقت موضوعات الشعر العربى فى التعبير عن قضايا المجتمع التى طرحتها الثورة، وفى خضم هذا الشعر الثورى صور الشعراء كفاح كل الشعوب الثائرة ضد العبودية، والظلم والحروب، وأشادوا بالقيم الثورية الجديدة مثل الحرية والعدالة والمساواة والتحرير، وحكم الشعب، والبناء والعمل، والحياة المنطلقة إلى الأمام.

وكانت بنية القصيدة -أيضًا- ولغتها متسقة -غالبًا- مع هذا الموقف الجديد الذى تميز بالإيقاع السريع، وتحطيم كل الأبراج العالية، ورفع شعارات سيادة الجماهير وإلغاء الفوارق الاجتماعية، واندفاع طوفان المعارك والإنجازات والتهاب المشاعر الوطنية، وتأجج الأفكار والمعانى القومية، وانزووا كثير من موضوعات الشعر القديم وألفاظه، وابتعاد الشاعر عن التأنق الشديد أو التعمق الفلسفى.



عبد الناصر يكرم توفيق الحكيم



عبد الناصر يكرم عميد الأدب العربى طه حسين

هوامش الفصل الثانى

---

[1] رددت ذلك كتابات كثيرة منها جريدة الشعب، العدد ٢٠٣، ٥ / ١٢ / ١٩٥٦ مقال توفيق الحكيم بعنوان "الأدب تجربة وفكرة ومعرفة".

[2] صلاح عبد الصبور، حياتى فى الشعر، دار العودة، بيروت، ص ٨٦.

[3] عبد الرحمن الشرقاوى، ديوان من أب مصرى، دار الكاتب العربى، ١٩٦٨، ص ٤٦.

[4] أحمد عبد المعطى حجازى، ديوان مدينة بلا قلب، دار الكاتب العربى، القاهرة، ص١٦٤.

[5] السابق.

[6] صلاح عبد الصبور، ديوان الناس فى بلادى، ط دار الشروق، ص ٩١.

[7] على الجندى، ديوان ترانيم الليل، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣٩.

[8] أحمد عبد اللطيف بدر، ملحمة الثورة، بورسعيد، ١٩٦٦، ص ٣٢.

[9] عبد العليم القبانى، ديوان أشعار قومية، ص ١٧.

[10] أحمد عبد اللطيف، ملحمة الثورة، ص ٣٧.

[11] محمد المهدى المجذوب، ديوان نار المجاذيب، الخرطوم، ص ١٩٦٩، ص ١١٥.

[12] محمد كمال عبد الحليم، ديوان الزحف المقدس، القاهرة د.ت، ص ١١.

[13] جمال عبد الناصر الرجل والمعجزة، ديوان بيرندرانات، ترجمة عبد العظيم رجب، القاهرة ١٩٧٠.

[14] محمد حبيب صادق، قصيدة فارس العرب، مجلة الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٧٠، ص٢٣٠.

(15) إبراهيم الحضراني، قصيدة الراحل المقيم، مجلة الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٧٠، ص ٢٣٥.

(16) أحمد عبد اللطيف بدر، ملحمة الثورة، ص ٤٦.

(17) محمد برهام، ديوان الشموع، دار المعارف، ١٩٧١، ص ١٠٦.

(18) محمود غنيم، ديوان في ظلال الثورة، دار المعارف ١٩٦١، ص ١٨.

(19) محمد الفيتوري، ديوان اذكريني يا إفريقية، ص ٢٤٠.

(20) ديوان ملحمة الثورة، ص ١٥.

(21) السابق، ص ١٦.

(22) السابق، ص ٢١.

(23) السابق، ص ٦٠.

(24) عبد الوهاب البياتي، قصيدة إلى عبد الناصر الإنسان، مجلة الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٧٠.

(25) الشاعر محمد عمران، المصدر السابق، ص ٧٤.

(26) السابق، ص ١٧٥.

(27) الهادي آدم، قصيدة أكذا تفارقنا، المصدر السابق، ص ١٩٢.

(28) الملحمة الوطنية، ص ٧١.

(29) فتحي رضوان، عبد الناصر، كتاب الهلال، يوليو ١٩٩١، ص ٤٢.

الفصل الثالث

عبد الناصر السياسى

حكم جمال عبد الناصر مصر زمنًا طويـلاً، كـان أقلـه مـن وراء ستار، أما أكثره فقد تربع فيه منفـردًا علـى سُـدَّة الحكـم، فـى أكبر دولة عربية، وأعمقها تاريخًا، وأثراها تراثًا. وبعد قليل من قيام ثـورة يوليـو ١٩٥٢ وإلى وفـاة عبـد النـاصر، اختفـت مـــن مصـــر الأحزاب السياسية والانتخابـات النيابيـة الحـرة، فلـم تعـرف مصـر الحياة الحزبية أو الديمقراطية، وإنما ساد فيها الحاكم الفرد، والصوت الواحد، والتنظيم السياسى الوحيد، والزعيم الأوحد.

وعلـى الرغـم مـن أن ثـورة الثـالث والعشـرين مـن يوليـو ١٩٥٢ كانت تعبيرًا عن طمـوح شـديد إلى واقـع جديـد، بعـد أن ضج الناس من ويلات واقعهم الذى عاشوه فى ظل الحكم الملكـى، إلا أن هذه الثورة -بعد قليل مـن قيامهـا- صـارت تجسيدًا لإرادة شـعبية عارمـة فـى صنـع حيـاة جديـدة علـى هـذه الأرض الطيبـة. وبغض النظر عن أن هذه الإرادة الشعبية قد تعددت وتنوعـت فيهـا المبـادئ والمطـامع والأهـواء، إلا أنهـا جميعًـا سـاندت الثـورة التـى تحالفت مع كل قوى المجتمـع تحالفًـا مرحليًـا، فـالإخوان المسـلمون والشيوعيون والعسكريون والسياسيون وغـيرهم، قـد أيـدوا الثـورة وأعانوها بهدف أن يصلوا إلى الحكم، وهكـذا اندفعـت الثـورة إلى إعادة بنـاء المجتمـع المصـرى، وتجديـد تنظيمـه الهيكلـى علـى أسـس

جديدة. وكما اكتسبت الثورة مزيدًا من الشعبية والتأييد مع كل خطوة من هذه الخطوات، فقد اكتسبت أيضًا مزيدًا من المعارضين والرافضين والمنشقين، وهؤلاء يمكن القول إنهم فى جملتهم من ضحايا الأفكار والقرارات والسياسية الجديدة.

لقد كان أول ما فكرت فيه ثورة يوليو بعد قيامها هو قانون الإصلاح الزراعى، فاكتسبت بذلك عداء كبار أثرياء المجتمع المصرى الذين تمثلت ثروتهم فى امتلاك الأراضى الزراعية الشاسعة. وبعد ذلك بشهرين فكرت الثورة فى إصلاح نظام الإدارة الحكومية و«طرد الموظف الفاسد والمحظوظ والعاجز»؛ فكانت حركة التطهير التى تركت أصداء واسعة بعد أن أطاحت بموظفين كبار ذوى هيبة وسلطان. وتتالت بعد ذلك الأحداث والقرارات فى تتابع دراماتيكى حاد وعنيف، بحيث يشبه كل منها زلزالاً يقلب الأرض ظهرًا لبطن، وأعلنت الجمهورية، فألغيت الملكية وتم القضاء على أعوانها، وكذلك ألغيت الأحزاب السياسية فاختفى الدور الفاعل لرجالها، وأنشئت محكمة الثورة ليمثل أمامها أساطين المجتمع وقادته حتى الأمس القريب، وأقصى أول رئيس للجمهورية وهو اللواء محمد نجيب، وزج به فى المعتقل على الرغم من شعبيته الهائلة. وبعد محاولة الاعتداء على جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية

بالإسكندرية، ضربت الثورة بعنف جماعة الإخوان المسلمين، ، وأمرت الشيوعيين بحل تشكيلاتهم وتنظيماتهم، فاستجاب بعضهم وانخرطوا فى التنظيم السياسى للدولة، وأبى آخرون ذلك ولجأوا إلى العمل السرى فكان نصيبهم الاعتقال. ونشطت قوى اجتماعية تطالب بعودة الحياة النيابية، وإطلاق سراح المعتقلين، وترك الحكم للمدنيين، واستئناف الأحزاب السياسية لأنشطتها. وفى نهاية عام ١٩٥٤، أعلن اتحاد عمال النقل إضرابًا عامًا شل حركة البلاد وتعطلت المصالح، فأنهت سلطة الثورة هذا الإضراب ببطش شديد، وانعقدت الجمعية العمومية لمجلس الدولة «للنظر فى الشئون العامة» برئاسة الأستاذ عبد الرازق السنهورى رئيس المجلس، وأصدرت قرارًا بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية، وذكر اللواء محمد نجيب فى كتابه "كلمتى للتاريخ" إن عقاب ذلك كان أن زحفت مظاهرة مدبرة بقيادة ضابط المخابرات حسين عرفة، أحاطت بمجلس الدولة، ومنعت من فيه من الخروج، وعلى رأسهم رئيس المجلس، واعتدى المتظاهرون عليهم بالضرب الشديد، ومزقوا القرار الذى اتخذ. واستمر هذا التتالى البغيض.



عبد الناصر مع الدكتور السنهورى رئيس مجلس الدولة

وكان طبيعيًا أن يصب معارضو عبد الناصر وشانئوه جام غضبهم عليه وحده، وكان منطقيًا أيضًا أن تشير كل أصابع الاتهام إليه شخصيًا، فهو المسئول الأول فى نظام عتيد، وهو محوره وصاحب القول الفصل فيه.

ومن منطق الأمور أن يكتب الشعراء القصائد فى لومه والهجوم عليه فى حدة وبغضاء، ومن منطقها أيضًا ألا تنشر هذه القصائد أو ترى النور، بل راح الناس يتهامسون بها فى مجالس ضيقة، ويتبادلونها سرًا فيما بينهم، وأن يتم ذلك شفاهة بلا كتابة وأوراق، خاصة وقد رددت ألسنتهم قبل منتصف الخمسينات اسم الضابط حمزة البسيونى صاحب القدرة الفذة فى عالم التعذيب والمعتقلات. وبعد ذلك بقليل، كان ذكر أسماء بعينها، مثل البسيونى وعليش وصلاح نصر كفيلاً بإخلاء شوارع إحدى المناطق من الناس إيثارًا للسلامة، وفرقًا من المصير المجهول.

لقد كان الباعث إلى كتابة هذه القصائد الاختلاف الكبير مع عبد الناصر السياسى الذى يتولى إدارة الأمور، وليس للنظرة الأسطورية أو الثورية نصيب فى ذلك؛ بل إن هذه القصائد كانت تأكيدًا على رفضها.

وتساقطت كثير من هذه القصائد من ذاكرة الزمن، بوفاة حامليها أو اختفائهم من حياتنا، وبقيت منها أبيات قليلة لدى قليلين. ولقد بذلت جهدًا كبيرًا فى محاولة جمع نصيب منها، لأنها تعبير عن الرأى الآخر الذى لم يكن متاحًا له الظهور الاجتماعى الشرعى.

فكتب الشاعر هاشم الرفاعى[١] يهاجم عبد الناصر عام ١٩٥٦ حين بدأت شمس أسطورته تصعد إلى كبد السماء، فقد رأى الشاعر أن عبد الناصر راح يمارس مع الشعب دور النخاس مع العبيد، فينزل بهم الذل والمهانة لأنه مالكهم والمتحكم فى رقابهم، وليس رئيسهم المنوط به إدارة شئونهم، فقال:

أنزل بِهذا الشَّعبِ كلَّ هَوان وأعِدْ عُهودَ الرِّقِّ للأَذْهان

يا وارِثَ المُلْك العَريضِ مُنَعَّمًا وأبوكَ بينَ النَّاس لِصٌّ أَتَان[٢]

لقد أنزل عبد الناصر العسف والهوان بالشعب، حتى أعاد إلى أذهان الناس صورة عهود الرق والعبودية التى كانت فى التاريخ القديم، وكأن عبد الناصر قد ورث هذا الملك العظيم الذى لا يطاول، فراح يتقلب فى ألوان النعيم وكأنها حق مشروع له ورثه عن إله الصيد، فى حين أن أباه لم يورثه شيئًا من ذلك، وكعادة المصريين فى السخرية الشديدة من حكامهم غمزه بأبيه.

وحين أنشأ عبد الناصر أول مجلس نيابى أسماه "مجلس الأمة"، ظر الشاعر حوله، فلم يجد انتخابات حرة، و لم ير نوابًا أكفاء، وتذكر ما تعلمه فى دراسته لقصيدة أحمد شوقى فى مناسبة الانتخابات البرلمانية بعد دستور ١٩٢٣، حين قال :

البرلمان غدًا يُعد رواقَه ظِلاً على الوادى السعيد ظَليلا

نَرجو إذا التعليم حرَّك شَجوَه ألاَّ يكون على البلاد بخيلا

ناشدتكم تِلك الدِماءَ زكية لا تبعثوا للبرلمان جَهولا

فليسألن عن الأرائك سائل أحَمَلْنَ فَضلاً أم حملن فُضولا

إن أنت أطلعت المثل ناقصًا لم تَلقَ عند كماله التمثيلا

فأعدوا لها أهل الأمانة واجعلوا لأولى البصائر مِنهم التفضيلا

فنظر إلى الحاضر فى سخط شديد، وخاطب عبد الناصر عام ١٩٥٧ ساخرًا من مجلسه النيابى، ومعرضًا بنوابه الموافقين والنائمين، فقال فى مطلع قصيدته :

هَا هُمْ كما تَهْوَى فَحرِّكْهُم دُمَى لا يَفتَحون بغيرِ ما تَرضَى فَمَا

وختمها بقوله :

ونكبتَ أُمَّتَنا بِمَجلِسِها الذى سُقْتُمْ إليه مُوافقين وَنُوَّما(٢)

فالشاعر يصف نواب برلمان عبد الناصر بأنهم دُمَى، أى فاقدون للإرادة والتفكير والفعل، أو القدرة على تمثيل الأمة، فلا يفتح أحدهم فمه إلا بما يرضى سيده الذى اختاره وصنع منه نائبًا، فهؤلاء النُّوَّاب ليسوا مجلسًا تشريعيًا، بل هم صوت سيدهم الذى ساقهم قطيعًا كالأنعام إلى البرلمان، فكانوا مصيبة كبرى سقطت على رأس الأمة، فلا يمارسون فى البرلمان غير الموافقة أو النوم. وفى هذه الصفات سخرية مريرة وهجاء مقذع، يبين أى مهانة حاقت بالأمة آنذاك، وأى درك سحيق انزلقت إليه، وأى زراية فاضحة لحقت بهؤلاء النواب الذين دارت الأيام فرأينا أحدهم يرقص داخل المجلس النيابى فرحًا لعدم تنحى عبد الناصر بعد النكسة.

وكان الشاعر هاشم الرفاعى قد كتب فى شهر مارس ١٩٥٥ قصيدة شهيرة بعنوان "رسالة فى ليلة التنفيذ"، نشرت بعد ذلك فى ديوان "جراح مصر"، والقصيدة كأنها رسالة بعثها الشاعر من أعماق السجن إلى أبيه ليلة تنفيذ حكم الإعدام عليه، ومطلعها:

أَبَتَاهُ مَاذا قَدْ يَخُطُّ بَنَانِى والحَبْلُ والجَلاَّدُ مُنْتَظِرانِ

هَذا الكِتَابُ إليكَ مِن زِنْزانةٍ مَقْرُورةٍ صَخْرِيَّةِ الجُدْرَانِ

لَمْ تَبْقَ إلا لَيلَةٌ أَحيا بِها وَأُحِسُّ أَنَّ ظَلامَها أَكفاني
سَتَمُرُّ يا أَبَتَاهُ - لَسْتُ أَشُكُّ في هذا- وَتحمِلُ بَعدها جُثمان

وراح الشاعر يصور ما يلاقيه السجين فى زنازين ذلك العهد، لكنه يعبر أيضًا عن ثورته الغاضبة ضد الظلم والطغيان والتعذيب، مؤكدًا أن لحظة اقتلاع الطغاة وتحطيم الجبروت والسلطان آتية ولا ريب فى ثورة عاتية هى الأقوى :

أنفاسُك الحرّى وإنْ هى أُخمِدَتْ سَتظَلُّ تَغمُرُ أُفْقَهُم بدُخانِ
وَقُروحُ جسمِكَ وهو تَحتَ سِياطِهم قَسَماتُ صُبْحٍ يَتّقِيه الجاني
دمْعُ السَجين هُناك فى أغلالِه وَدَمُ الشَهيد هنا سيلتقيان
حتى إذا ما أُفْعِمَت بِهِما الرُّبا لَمْ يَبْقَ غيرُ تَمَرُّدِ الفَيَضانِ
ومن العَواصِف ما يَكونُ هُبوبُها بَعْدَ الهُدوء وراحَةِ الرُّبّانِ
إنَّ احتِدامَ النارِ فى جَوْفِ الثَّرَى أَمْرٌ يُثيرُ حَفيظَةَ البُركانِ
وتَتَابُعُ القَطَراتِ يَنزلُ بَعْدَهُ سَيْلٌ يَليه تَدَفُّقُ الطوفانِ
فَيَموجُ يَقْتَلِعُ الطُّغاةَ مُزَمْجِرًا أَقْوَى مِن الجَبَروتِ والسُّلْطَانِ

وكتب صلاح عبد الصبور قصيدته "عودة ذى الوجه الكئيب"(٤) يسخر فيها من عبد الناصر سخرية شديدة، ويصور

فيهـا مـا أوقعـه بمصر مـن المآسـى، وفـى مطلعهـا يرسـم صـورة كاريكاتورية قبيحة للزعيم الذى نشر الأسى والخراب و لم ينعم فـى عهده سوى الدَجَّال والقواد والقراد والحاوى، بعد أن سـاد الإذلال والكذب والأسى :

هل عاد ذو الوَجْهِ الكئيب ؟

ذو النظرة البكماء والأنف المقوسِّ والنُّدوب

هل عاد ذو الظفر الخَضيب

ذو المشيةِ التَّيَّاهة الخيلاء تَنقرُ فى الدُّروب

لَنَاً من الإذلال والكذب الـمُرَقَّشِ والنَّعيب

ومَدينتى مَعقودة الزنارِ

عَمياء ترقُصُ فى الظلامِ

وَيُصفِّرُ الدَجَّال والقَوَّادُ والقَرَّادُ والحاوى الطروب

فى عُرسِ ذى الوَجهِ الكَئيب(٥)

لقد صور الشـاعر عبد النـاصر وقـد عـاد إلى المدينـة بعـد غياب، فأقيمت الأفراح احتفالاً بعودته. إذن فنحن أمام صورتـين،

صورة الرئيس العائد، وصورة المدينة المحتفلة بعودته، أما عبد الناصر فله وجه كئيب لا تهش له القلوب ولا تسعد به العيون، وله نظرة بكماء لا تفصح ولا تبين، وتلك كانت من صفاته، بحيث لا تكشف عما فى باطنه، وله أنف طويل مقوّس، وهذه من أشهر ملامحه، وفى وجهه ندوب علامات على القبح، فياله من وجه قبيح منفر احتشدت فيه أمارات التنفير.

لكن عبد الناصر له ظفر خضيب، علامة على أن يديه مخضبتان بدماء قتلاه، وقروح المعذبين فى سجونه ومعتقلاته، ونزيف من افترستهم سياط جَلاّديه. وله أيضًا مشية تياهة خيلاء، شاهدًا على الكبر والغرور، وعدم الاكتراث بالناس، ودليلاً على أنه يرى نفسه فوق الناس وليس معهم، وأنه عليهم وليس منهم. وهى مشية تمعن فى الإذلال، وتزيد من العنت، ولذا فإنها تنفر فى الدروب، فهى ليس مشية محببة، وليس لوقعها صوت النغم، إنها تنقر، ففى الفظة معنى الحدة والشدة والأثر الواضح، لكنها تنقر لحنًا، واللحن يعزف ولا ينقر، وهذه علامة على النشاز والشذوذ وعدم قبول النفس لما تسمع، كما إنه لحن من الإذلال لهذا الشعب الذى وضعته الأقدار حاكمًا له، ولحن من الكذب المرقش الذى يصبه فى آذان الناس ليل نهار بخطبه وكلماته وأجهزة إعلامه، كأنه

يتحدث عن الأمة والشعب وهو لا يعنى إلا نفسه، وهـو لحـن مـن النعيب وهذه حقيقة معزوفاته عند من يفهمون شخصه ومراميه.

ويلتفـت الشـاعر إلى البدايـة التـى تجسـد لغـزًا وعلامـة استفهام، من أين جاء هـذا الرجـل وكيـف جـاء ؟ ويصـور كيـف وقف الناس حائرين عاجزين عن تفسير ما حدث :

من أين جاء ؟

ويقولُ سادَتُنا الأماجِدُ حين يَزُوون الجَبين

شأنَ الثُقاةِ العارِفين

مِن السَماءِ...

من أين جاء ؟

ويَظَلُّ أهلُ الفَضْلِ فينا حائرين

ويُتَمْتِمون على مسابِحِهم وهم يَتلاغَطون

هذا ابتلاءُ اللـهِ ! هذا مِن تَدابيرِ القَضاء

مِن أينَ جاء ؟

وَيَقُولُ أصحابِـى وهم كالزعزع النكباءِ قوة

العَزمُ يلمَعُ فى عُيونِهم وتَجرِى فى عُرُوقِهم الفُتُوَّة

مِن الجَحيم

وكَيْفَ جاء ؟

فلا أحد يستطيع تفسير ما حدث، شأن المعميات التى يقف أمامها الإنسان حائرًا عاجزًا، ولذا يلح الشاعر فى السؤال : مَن أين جاء ؟ ويكرر السؤال دون ملل دليلاً على شدة العجز وعدم القدرة على التحديد. ولا يقصد بسؤاله تحديد الجهة التى جاء منها، لكنه يبحث عن الماهية والكيفية، ولذا ختم أسئلته بقوله: وكيف جاء ؟

ولأن كثيرًا من الناس كانوا ينظرون إلى عبد الناصر نظرة أسطورية، كما ينظرون إلى أفعاله وقراراته على أنها ضرب من الأساطير لغرابتها وشذوذها وعدم توقعها ورفض العقل تصديق إمكانية حدوثها، فقد مثل الشاعر لعبد الناصر بشخصية أسطورية غائرة فى التاريخ، وهى شخصية أبى الهول فى أسطورة أوديب، وهو الوحش القابع على باب المدينة يلقى على كل المارين سؤالاً يكون الموت نصيب من لا يعرف إجابته، فهذا أبو الهول المخيف نصب سرادقًا على باب المدينة وراح يلقى سؤالاً على كل القادمين

والعائدين والهاربين والوالجين، والهلاك لكل من لا يقدم الإجابة التى ينتظرها، فالملتحون رمز للمتدينين بالرسالات السماوية، والأمردون من تعلقوا بالفكر فقط كالشيوعين، وليس هؤلاء ولا هؤلاء يستطيعون تقديم الإجابة التى فى رأس الزعيم، لكن يقدر عليها الكاذبون والمنافقون مثل الدجال والقواد والقراد والحاوى الطروب، فقال :

هذا "أبو الهول" المخيف

نَصَبَ السُّرَادِقَ عِنْدَ بابِ مَدينَتِى للقادمين

وللعائدين

والهاربينَ إلى الفَضاء

والوالجينَ إلى البِناء

لا ، لَم يَدَع أحدًا ...

إلا وألقَى دُونَه هذا السؤال

مَن خالِق الدنيا ؟

المُلْتَحونَ تَهلَّلُوا ، وأجابَ رائدُهم بِصَوْتٍ مُستَفيض :

اللـه خالِقُها ...! وهذا لا يَصِحُ به سُؤال

وَعَوَى أبو الهَوْلِ المخيف، وقَلَّب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورَمَى بِجميعِ المُلتحين إلى الدَّمار

والأمرَدون تأملوا، وأجاب رائدُهم بصوت مستفيض :

لا نستطيع ! بل نحنُ نعرِف ! إنه قدم الطبيعة

وعَوَى أبو الهول المخيف، وقلب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورمَى بجمعِ الأمردين إلى الدَمار

وتَقدَّمَ الدَجَّال والقوَّاد والقرَّاد والحاوى الطروب

وتَضَعْضَعُوا ! قالوا مَعاذَك ! أنتَ خالِقُها، أجَل...

أنتَ الزَّمان

أنتَ المكان

أنت الذى كان

أنت الذى سيكون فى آتى الأوان

وعوَى أبو الهَوْلِ المُخيف وقلب الوجهَ الكئيب إلى اليَمين

وأشار، ثم تواثبوا فوق الأرائك جالسين

لقد جلسوا إليه، فهؤلاء فقط أصحابه الحظوة والمكانة في عهده الميمون، الدجال والقواد والقراد والحاوي الطروب، لذا قدموا له ما يرضيه، فرضي عنهم وأشار إليهم أن اجلسوا على الأرائك ناعمين، لكنهم لم يتقدموا في هدوء العلماء، أو جلال الأجلاء، أو وقار الأتقياء، وإنما تواثبوا كما يتفق مع طبيعة القواد والقراد والحاوي. واستخدام الشاعر للفعل تواثبوا فيه ثراء يفضح طبائع الأشياء، فاستخدام الفعل بهذا البناء دليل على الافتعال والتكلف ومشقة الأداء، وفي معنى الفعل دليل على عدم معرفة أسلوب التصرف في حضرة القادة، أو فيه إشارة إلى أنهم أقزام لا يرتقون الأرائك في سهولة. لكنه في كل حال سلوك لا يقع في حضرة رئيس إلا إذا كانت الأمور قد بلغت حدًا من الزراية لا يوصف.

وأخيرًا يصل الشاعر إلى السؤال اللازم : كيف الخلاص ؟ فسيظل ذو الوجه الكئيب يصنع بنا البلاء إلى أن يتغمدنا الله برحمته. إنها الموت ولا شيء غيره يخلصنا منه ويعيد البسمة إلى حياتنا :

سيظل ذو الوجه الكئيب وأنفه ونيوبه ...

وخطاه تنقر فى حوائطنا الخراب

إلا إذا

إلا إذا مات

سيموت ذو الوجه الكئيب

سيموت مختنقاً بما يلقيه من عفن على وجه السماء

فى ذلك اليوم الحبيب

ومدينتى معقودة الزنار مبصرة سترقص فى الضياء

فى موت ذى الوجه الكئيب

لقد ازدادت ملامح الرئيس قبحًا وبشاعة، فجعل لـه نيوبًـا فوق الوجه الكئيب والأنف المقوس، وجعل خطاه تنقر فى حوائطنا الخراب بدل أن كانت تنقر فى الـدروب. وكلمـا ازدادت بشـاعة الأشياء تطلع الناس إلى الخلاص منها، ولا قادر على تحقيق ذلك إلا الله، لذا تمنى الشاعر له الموت، فنحن أعجز مـن أن نتخلـص منـه، وقضاء الله أقدر من أن يفلت منـه الظـالم. وحـدد الشـاعر كيفيـة

موت ذى الوجه الكئيب، سيموت مختنقًا بما يلقيه من عفن، وهكذا ترد إليه أعمله، ويجيء اليوم الحبيب إلى القلوب بعد طول غياب، فترقص مدينته فى النور بِشرًا وسعادة.

ومنذ نهاية عام ١٩٦٤ تناهت إلى الأسماع أخبار حزينة عن تورط الجيش المصرى فى حرب اليمن، وعلى امتداد أكثر من عامين تتالت همسات الناس عما يدور فى السجون والمعتقلات من تعذيب وإهدار لآدمية الإنسان، وخراب للاقتصاد المصرى، وتغلغل العسكريين فى كل مواقع السلطة والإدارة المدنية، والإطاحة برجال الرأى والفكر، ومصادرة الأموال والأفكار، وسيطرة الرقباء والمخبرين على كل كلمة أو فكرة، وتسلق المتنفعين إلى مجالات العمل السياسى، وسيادة أهل الثقة دون أدنى اعتبار لخبرة فنية أو صالح عام. وسحق كل الاتجاهات الفكرية والسياسية، ومنها الاتحد الاشتراكى الذى رفعت الدولة لواءه، ومحاولة تحطيم الرموز الأدبية الكبيرة فى المجتمع المصرى مثل القضاء والجامعة، إضافة إلى دوى طنين أهازيج الزيف والنفاق.

وأحس الشعراء بالانكسار والألم الشديد وهم يرون الأمل الحلو يتسرب من بين أياديهم، والمثل الأعلى يتحطم شلوًا شلوًا، وأن عنف حماستهم وطول أغانيهم كانت عن خداع براق، فوقف

بعضهم يلعن الزيف والنفاق، ويؤكد إيمانه بأمانة الكلمة، ويرفض أقوال المتكسبين بالكلمة، والدائرين فى فلك السلطان، والمتاجرين بالرأى:

لن أترَجَّل

لن يأخذنى الخوف

فأنا الأصغر، لم أعرف بعد مُصاحَبَة الأُمَراء

لم أتعلم خُلُقَ النُدَماء

لم أَبِع الكلمة بالذَهَبِ اللألاء

ما جَرَّدتُ السيفَ على أصحاب، فرسان الكلمة

لم أخلع لَقَبَ الفارِسِ يَوْمًا

فَوْقَ أميرٍ أبْكَم(٦)

وشاعت نغمة الحزن الغامض فى الشعر، وأعنى بغموضه أنه لم يكن ذا سبب واضح للعامة، إضافة إلى اجترار الألم الحزين. وكانت قصائد ديوان "أقول لكم" للشاعر صلاح عبد الصبور تعبيرًا مريرًا ومتميزًا عن الألم، فقد راح يعمق معنى الحزن والأسى إلى حد بعيد، يقول فى قصيدة "الشىء الحزين"(٧) :

هناك شيء فى نفوسنا حزين

قد يختفى ولا يبين

لكنه مَكنون

شيءٌ غريب غامض ... حنون

ويظل يبحث عن الشىء الحزين المتمكن فى نفسه، فلا يجد غير الحيرة والعجز عن التحديد. وفى قصيدته "الظل والصليب" يؤمن الشاعر بأننا فى زمن السأم الذى صنعه الألم العظيم، فلا شيء ذا جدوى أو نفع، حتى يلقى بصرخته المدوية "هذا زمن الحق الضائع" يقطع بها أننا قد أوشكنا أن نغوص فى الضياع التام، لأن ضياع الحق والحقيقة يعنى ضياع كل شىء :

هذا زمان الحق الضائع

لا يَعرِف فيه مَقتول مَن قاتِله ومتى قَتَلَه

ورؤوس الناس على جُثَثِ الحيوانات

ورؤوس الحيواناتِ على جُثَثِ الناس

فَتحَسَّس رأسَك

فَتحَسَّس رأسَك[٨]

أصدر محمد مهران السيد ديوانًا كاملاً كله قطع من الألم يقول فيه :

الناس في بلدى يعبون الشَّجَن

ويبادِلون الليلَ آهاتٍ تَطِن

مَوّالهُم أبدًا يَئِن

يَستمرئ المأساة من ألِف وألف

ويسير فوق عيونِه السودَاء كَفٌّ

يَدعو أصابعها الزَمَن

حينًا .... وحينًا لا يراها غير أحكامِ القَدَر[٩]

وراح عدد من الشعراء يبرزون مثالب الواقع الاجتماعى الحزين فى محاولة لتنبيه وعى المجتمع وإيقاظه، ونفض السلبية عنه، ودفعه لإدراك مغزى ما يدور حوله. وتنضح قصائد أمل دنقل فى ديوانه "البكاء بين يدى زرقاء اليمامة" بكثير من الألم والحزن السميك بعد أن أظلمت الرؤية، وتحطم المثل الأعلى، وراح يفتقد

فى مجتمعه كل ما كان يعتنقه من مبادئ. وكتب "بكائية ليلية"
وهى قطعة من المرارة والألم الشديد، ليقول إننا نموت قبل أن نقاتل
العدو، لأننا لم نحدد أهدافنا بعد، فليس العدو فقط خارج الحدود،
بل على أرض الوطن أعداء مثل دعاة الفرقة وبائعى الوهم، ولذا
فإن الرصاصة الأولى ينبغى أن توجه إلى هنا قبل أن توجه إلى هناك:

نتوه في القاهرة العجوز

ننسى الزَّمَنا

نَفلِتُ من ضَجيجِ سَيَّاراتِها وأُغنياتِ الـمُتسوِّلين

تُظِلُّنا مَحطة الـمِترو مع المساء.... مُتعَبين

وكان يَبكى وَطنًا ... وكُنتُ أبكى وَطناً

نَبكى إلى أن تَنضبَ الأشعار

نَسألُها : أينَ خُطوطِ النار ؟

وهل ترى الرَّصاصةَ الأولى هناك ... أم هُنا ؟[10]

وهكذا لمعت القصائد التى تعبر عن الحب الشديد والحزن
القاتم، وتنتقد ما يدور فى المجتمع، وتحذر الناس من مغبة الآتى،

ومن سوء المصير، وسواد المنقلَب. لكن من الحق أن نقول إن ما كتبه الشعراء كان شيئًا شديد الضبابية والإغلاق بحيث لم يصل إلى الناس، فلم يكن الشاعر يستطيع الإفصاح أكثر، ولم يجد الناس فى القصائد إلا الحزن القاتم. صحيح أن الخاصة كانوا يعرفون معنى الرسالة، لكن هيهات أن ينطق أحدهم.

ولقد أدرك المدافعون عن نظام الحكم معنى الرسالة، فاندفعوا يتصدون لها، وكتب الدكتور لويس عوض يدق أجراس الخطر لظهور طارئ جديد فى حياتنا الأدبية، قائلاً : «أما الظاهرة العامة التى طرأت على الخلق الأدبى فهى اتجاهه نحو الجهامة والتشاؤم»[١١]. ووصف المسرحيات الكوميدية الجديدة التى تستعين بالرمز وتتزيًا بالتاريخ لتسقط على الواقع بأنها "الكوميديات السوداء". ووصف هذا الأدب الحزين الذى ينبه إلى نقائص المجتمع بـ"الأدب المتشائم"، وتساءل متعجبًا : «فإن لم يكن هذا تشاؤمًا فلست أدرى ماذا يكون التشاؤم؟» وعلى الرغم من الأوصاف الحادة التى استخدمها الدكتورلويس عوض إلا أنه دافع عن حرية التعبير، وطالب بدراسة هذه الظاهرة فى كل أنواع الأدب بعد أن سرت على مدى عامين.

وذهب الأستاذ محمود أمين العالم إلى أن مثل هذه الإبداعات «قد تبذر البذور السامة فى حقول النقاء الثورى»[١٢] وأنها «خطر على حياتنا الثورية الراهنة»[١٣] وبلغ الأمر حد التنديد بها لأنها عمل معادٍ للثورة والنظام القائم.

وكتب أمير اسكندر فى جريدة الجمهورية[١٤] يقول : «لا أحد يتصور أن فكرة الشعب المشلول المقهور المضطهد الذى تتحكم فيه عصبة من اللصوص والمرتزقة والأفاقين يمكن أن تكون الصورة الموجودة بعد الثورة».

وهكذا راح عدد من الكتاب والنقاد يصدرون البيانات السياسية السافرة باسم النقد الأدبى، ويستعدون السلطة السياسية ضد الأدباء، ويصفون أعمالهم بالثورة المضادة، بسبب جريمة الأدباء فى الاهتمام بالظواهر السلبية فى المجتمع، وشيوع الحزن والقتامة فى إبداعاتهم.

وليس من شك فى أن ظاهرة الحزن القاتم كانت تعبيرًا عن العجز والانسحاق، وضياع الأمل الحل، بعد أن بدأت الحقائق تتكشف، وأدرك الشعراء كم كانوا مخدوعين فى أمانيهم وأحلامهم. عاشوا بوعى مستلب، طالما ظنوه مدركًا لحقائق

الأمور، وتغنوا بمثال هو والوهم سواء، وعشقوا فاتنة لم تكن أكثر من سراب خادع. وكان لابد أن يصاحب الحزن إحساس بالعجز والقصور. ولكن ظهر من هؤلاء الشعراء من تقدم خطوة أو خطوات إلى الأمام وتجاوز الألم وإبراز المثالب إلى التحذير من سوء العاقبة ومغبة القادم، فهذا أمل دنقل يحذر فى ألم عظيم منذرًا بالآتى الأسود :

ويكون عامٌ فيه تَحْتَرِقُ السنابلُ والضروع

تنمو حَوَافِرُنا مع اللعنات من ظَمَأ وجوع

يَتزاحَفُ الأطفالُ فى لَعْقِ الثَّرَى

يَنمو صَديدُ الصَّمْغِ فى الأفواه

فى هدب العيون .. فلا تَرى

تَتساقَطُ الأقراطُ من آذان عَذراواتِ مِصر

ويَموتُ ثَدْىُ الأمِّ ... تَنهَضُ فى الكرَى

تَطهو على نيرانها الطِّفْلَ الرَضيع(١٥)

ومن المؤكد أن هذه القصائد كانت تمثل لونًا من المعارضة السياسية الواضحة، وإن كانت فى دوائر ضيقة أول الأمر، ولم تشر مباشرة إلى شخص الرئيس ونظامه، لكنها تحت وطأة المحاذير الكثيرة نجحت فى أن ترفع صوتًا وتعلن رأيًا.

ووقعت النكسة فكانت حدثًا فارقًا فى حياة عبد الناصر، إذ اندفع كثيرون إلى رفع أصواتهم، وسالت الأقلام بالكتابة، وعلى الرغم من هذا فإن ما نشر كان القليل، ومنه أن الشاعر حسين عرب كتب قصيدة طويلة تقرب من ثلاثمائة بيت، أسماها "نكبة حزيران" سرد فيها قصة الهزيمة، لكنه صب جام غضبه على الزعيم، ووصفه بأن ثائر كذاب، يعرف مدى الأكذوبة التى يروج لها، وأن ثورته كانت نقمة، فقد بطش بالشعب وهدده وأخافه، ونكل بالإخوان المسلمين، وشتت الأمة العربية، وبث فيها الفرقة والبغضاء، فعاث فى الأرض فسادًا، وأنزل بنا الخراب :

فاسأل الثائرَ عَنْ ثَورَتِه ... واسأل التّاريخ ومَّنْ ثأرا

أمِنَ الإخوانِ أمْ مِنْ شَعبِه ... أمْ على العُرْبِ تَمَطّى وَازْدَرَى

عاثَ فى الأرضِ فَسادًا، وَمَضَى ... يَحصُدُ الرَّوْض، وَيُورى الشَجرا[١٦]

ورَفض الشاعر كل ما ألصقته الشعوب العربية بالزعيم من صفات العبقرية والعظمة، ورآه جاهلاً فارغًا لا يحسن تقدير الأمور، وليس فيه ملكات ولا مواهب، بل أكاذيب وادِّعاء أجوف، وأن خمول الشعوب العربية قد مكن لهذا الدعى فصال وجال وطغى وتجبر :

جاهِل أصْبَح فينا رائدًا وجَبان راح يَحكى عَنترا

رَكَب المَجْدَ على أعناقنا ثُمَّ أرغَى مُزبدًا مُفْتَخِرا

حال فِرعونا، فلما لم يَجِد مُنكِرًا، صارَ إلاهًا أكْبَرا

داعيًا باسمِ الجماهير ولا مِنْ جماهير، ولا من جَمْهَرا(١٧)

ففى هذه الأبيات سب مقذع، فقد وصف الزعيم بالجاهل والجبان، وفرعون والإله الأكبر، وغيرها، مما يدل على سواد الشحنة التى تملأ نفس الشاعر، وعلى خروج القصيدة عن طبيعتها لكونها عملاً فنيًا، إلى أداء أقسى من الهجاء، لكن هذه القصيدة ومثيلاتها دليل أكيد على بعد أثر قرارات وسياسات عبد الناصر فى النفوس إلى درجة بلغت ببعض الناس هذا المدى البعيد من السباب، وأثر فى الصناعة الفنية للقصيدة فابتعد بها عن الشعر، واقترب كثيرًا من حافة النظم.

لقد أغرت هذا الشاعر وغيره أمانيهم بما سيؤول إليه حال عبد الناصر بعد النكسة من الضعف والمهانة بحيث وجدوا فى أنفسهم الجرأة على كتابة مثل هذه القصائد التى اندفع إليها كل أصحاب المرارة الشخصية من عبد الناصر من سياسيين وإخوان مسلمين وغيرهم، فقد ظنوه يوشك أن يلفظ أنفاسه.

ومن أمثلة ذلك القصائد الكثيرة التى كتبها الشعراء عام ١٩٦٨ فى معتقل طره السياسى، حيث كانت كل القوى والاتجاهات والديانات ممثلة فى هذا المعتقل، ومنهم عدد كبير من الشعراء، حتى كان هناك مكان مخصص فى السجن يسمى "عنبر الشعراء"، ويذكر المعتقلون كيف أنشدهم الشيخ محمد عارف – أحد علماء الأزهر– قصيدة طويلة فى ذم عبد الناصر، وقد حفظوا أبياتها لجمال إيقاعها، وسهولة ألفاظها، ومنها قوله :

أتذكرُ إذْ أبوكَ يُقِلّ شَنطَهْ   وَيمشي في البلاد يَقُولُ بُوسطَهْ

وقد سَرَق الحِمارَ بذاتِ لَيْلٍ   لَمَا سَرَقَتْ كلابُ الحيِّ بَطّهْ(١٨)

ومن اللافت للنظر أن كثيرًا من الشعراء قد عيروا عبد الناصر بأبيه، وسرقة الحمار، التى يبدو أنها كانت من طرائق سخرية المصريين بحكامهم.

ولا ينسى المعتقلون كذلك غناء الشيخ محمد عارف فى السجن ببيت شعر شهير له فى ذم عبد الناصر، وهو :

جَمَعَ الخبائثَ كلَّها بُوفَقَهَشٍ نُذُلُ البلادِ، مَعَرَّةُ الأوطانِ

وكان يشرح "فقهش" قائلاً : الفاء للفجور، والقاف للقذارة، والهاء للهلس، والشين شر مستطير.

ومن أمثلة ذلك أيضًا، قصيدة مخطوطة بعنوان "فى ذكرى النكسة" كان الشاعر إبراهيم طلعت[١٩] قد كتبها فى عام ١٩٦٨ فى مناسبة مرور عام على النكسة الأليمة، وحَمَّل فيها عبد الناصر مسئولية الهزيمة، وإحياء إسرائيل بهذا النصر بعد مواتها، ولذا فلن يغفر الله له ذنوبه، فقد أنزل الخراب بمصر. ومنها قوله :

النكسةُ الكُبرَى حَمَلْتَ لِواءَها كالقائدِ المِغوار عاد مُظَفَّرا

أَحْيَيْتَ إسرائيلَ بعد مَواتِها وَبَعَثْتَها كالغُول تَجتاحُ القُرى

اللهُ غَفّار الذُّنوبِ جميعِها لكنَّ ذَنبَكَ لا أَظُنُّ سَيُغفَرا

يا وَيْحَ مِصرَ وقد مَشيتَ بِرَوْضِها فَمَحَوْتَ يابسَ غُصنِها والأخضَرا

يا بؤسَ للتاريخ كيف تَفَتَّحت صَفَحاتُه لِتَكونَ فيها أسْطُرا[٢٠]

وهذه الأبيات الخمسة كنت جزءًا من قصيدة تقع فى عشرين بيتًا، ظل الناس يتداولونها إلى وفاة عبد الناصر، وبعد ذلك

نشأت حملة سياسية منظمة تهدف إلى النيـل مـن الزعيـم ومؤيديـه، وأطلقت شائعات كثيرة، كما ظهرت كتابات عديد تـبرز المثـالب، وتوجه النقد العنيف، إضافة إلى فتح الباب واسعًا أمام كـل مـا هـو ضد الناصرية. وقد كشفت تلك الحملـة عـن كثـير مـن الجوانـب المظلمة التى كان يجهلها الناس، فاستجاب لها قطاع مـن الجماهـير، كما أنها أتاحت الفرصة لقطـاع آخـر أن يراجـع مواقفـه السـابقة، خاصة بعد أن كتب الدكتور إبراهيم عبده "رسائل من نِفاقِسـتان"، وكتـب توفيـق الحكيـم "عـودة الوعـى"، وظهـرت قصـائد تهـاجم الزعيم أو تلومه وتندد بسياسته، خاصة فى جـانبى الحريـة وحقـوق الإنسان. ومنها قصائد صدرت عن مواقف عقلية، مثل قول حامد نفادى :

إياك أن تطلب منا أن نَثور

فهذه الأمور غير ما عَوَّدتنا

علمتنا الطاعة والمهانة

وأننا لا بد أن نَخاف

كُنت وَحدَك الـمُغَنِّى

ونحن وَحدنا الـمُصَفِّقين

وحينما سمعتنا نردد الغناء

سَحَقْتَ فى أفواهنا الـمَوَّال

كُنتَ تَخاف أن نَمُدَ الساعِدا

أن نُصبِح السِّهامَ فى يديك(٢١)

ولقد كان من نتائج الحملة السياسية ضد عبد الناصر بعد وفاته أن وجد أصحاب المرارة الخاصة والعداء الشخصى له أو للمرحلة كلها، والذين كان يسميهم الثورة المضادة، والمنافقون، وجد كل هؤلاء الفرصة مواتية تمامًا كى يطلوا بوجوههم على الساحة من جديد، طمعًا فى دور جديد، أو أملاً فى تصفية حساباتهم ضد الماضى، أو رغبة فى التشفى والانتقام. وكان من أبرز هؤلاء بقايا جماعة الإخوان المسلمين الذين أخمد عبد الناصر أنفاسهم وكمم أفواههم أكثر من خمسة عشر عامًا، فترك فى نفوسهم جروحًا غائرة. وإذ سمح النظام السياسى لكل هؤلاء بالتعبير طفقوا يقذفون الزعيم بكل ألوان التهم، ونشروا كثيرًا من القصائد بأسماء مستعارة، فذاعت كثير من القصائد التى لا يعرف

الناس اسم كاتبها، ومثال ذلك ما أشيع عن كسر ماسورة المجارى عند مقبرة الزعيم وأن المياه قد جرفت جثته، فذاعت قصيدة للشاعر أحمد فهمى خطاب[٢٢] يقول فيها :

رأسُ الفسادِ تحطَّمْ وهَوَى بقاعِ جَهنَّمْ
وانزاح كابُوس على صَدْرِ العُروبَةِ خَيَّمْ
رَفَضَ الثَّرَى جُثمانَه وأبَى الخَرى وتَعَظَّمْ[٢٣]

واستثار البيت الأخير شاعرية الأستاذ إبراهيم طلعت، فأدخل عليه تعديلاً وجعله صدرًا لأشهر قصيدة ذاعت بعد وفاة عبد الناصر أسماها "المعلقة السوداء"، أدخل فيها قصيدته الأولى "فى ذكرى النكسة"، وأضاف إليها كثيرًا، وحاول فيها أن يصور الواقع الذى عاشته مصر حتى عام ١٩٧٠، «حتى تليق بما كتب لها من ذيوع وانتشار لم تحظَ بمثله قصيدة فى الشعر العربى منذ قرون، وحتى تكون بعض تراث الشعر العربى المعاصر، تتوارثها الأجيال القادمة كصورة صادقة للتاريخ الذى حاول من قيلت فيه القصيدة أن يزوره أو يمحوه»[٢٤].

ولم تنتشر قصيدة فى العالم العربى كما انتشرت هذه القصيدة، وذاع صيتها وحفظها كثيرون وتناقلوها. «وقد اختلف

الناس فى أمر قائلها، فبعضهــم نسبها إلى شعراء انتقلوا إلى رحمـة الله، منهم المرحوم عزيز أباظة، وزعم بعضهم أن روح أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقى أملاها من العــالم الآخـر علـى وسيط أعـده لذلك الدكتور رؤوف عبيد العالم الروحانى، وآخـرون نسـبوها إلى أنفسهم»[٢٥].

وقد عارض الشاعر فيها قصيدتين من عيون الشعر العربى، الأولى قصيدة المتنبى فى مدح ابن العميد، ومطلعها :

بادٍ هواك صبرتَ أم لم تصبرا وبكاك إن لم يَجرِ دَمعُكَ أو جَرَى

والثانية قصيدة أمير الشعراء فى الأزهر، ومطلعها :

قُم فى فَمِ الدُّنيا وحَـيِّـى الأزهرا وانثُر على سَمْعِ الزَّمان الجَوْهَرا

فضمن فى قصيدته أشـطرًا وأبياتًـا مـن هـاتين القصيدتـين، وكتب مطلعها :

لَـفَـظَ الـثَّرَى جُثمانَه وتَطَهَّرا وَرَماهُ فى خَبَثِ المجارى والخرا

وأشار الشاعر مرسى جميل عزيز باستبدال الكلمة الأخـيرة لأنها تصدم السمع والحس الفنـى، علـى الرغـم مـن أنهـا فصيحـة، فاستبدلها الشاعر، وقسم معلقته إلى مقاطع بدأها بقوله[٢٦] :

لَفَظَ الـثَّرَى جُثْمانَـه وتَطهَّـرا   وَرَماهُ فى خَبَثِ المَجارى مُنكـرا

خَبَثٌ إلى خَبَـثٍ يَعـودُ لأصلِـه   لا تَحسبوه جَرَى يَعُبُّ الكَوْثَـرا

لا تَحسبوا تحت الـتُّراب عِظامَـه   أَبَتِ القُبورُ بأن تَكـونَ لـه ثَـرَى

هـذا الضَّريـحُ بِمِصرَ يبقَـى قائمًـا   عِظَةَ الزَّمان وعِبرةً لِمَـن افْـتَرَى

آمنـتُ أنَّـكَ يـا إلهـى عـادلٌ   لمـا سَـحَقْتَ الظـالمَ المتجـبِّرا

وَحَصَدتَ جنتَـه وقد دانَـتْ لـه   زَهْراءَ، حتى خَالَهـا لـن تَدبـرا

يا رب عَفْوَكَ لا شَماتَ بِمَيِّتٍ   لكنَّ مَوْتَ القَحْطِ بُشرَى للوَرَى

فالوصف فيه حدة وإقـذاع، وشدة وشراسـة، بلغت حـد السخرية والتشفى بالرجل بعد وفاته، وكأن ما عجز عنه شانئوه فى حياته، ظنوه سهلاً متاحًا بعد موته، وإذ قصروا عن النيـل قبـلاً فـلا بأس من نيل جثته وعظامه. ويلتمس الشاعر لنفسه الأعذار فيطلب من الله العفو، ويقر بأنه لا شمـات بميـت، لكـن عبـد النـاصر ليس ميتًا، إنـه قحـط وبـلاء كبـير نـزل بنـا وأزالـه الله. ولـذا فرحـت الأخلاق والمثل العليا بموته الذى اسـتقبلته المدائن والقـرى كفرحـة الزفاف :

يا فَرْحَةَ الأخـلاقِ والـمُثُلِ العُـلا إذ زُفَّ نَعْيُـكَ فـى المدائـنِ والقُـرَى

يا للحَماقَةِ والغُـرورِ ظَنَنْـتَ زَخْـ ـرُفَهـا يَدومُ فَكُنْـتَ أعمَـى لا تَـرى

وَحسِــبْتَ جَنَّتَك التـى شَـيَّدْتَها فَوْقَ الخرائبِ سَوف تَطْرَحُ جَوْهَرا

وهكذا بعد أن وصفه الشاعر بأنه خبث من أصل خبيـث، وظالم ومتجبر ومتكـبر وقحـط، عـاد ووصفـه بأنـه أحمـق ومغـرور وأعمى، وأحال جنتنا إلى خرائب، واستكمل قائلاً :

قَدَرٌ رَمَى بكَ مِصرَ كالطاعونِ كالـ ـطوفـانِ، كـالزلزال جـاء مُدمِّـرا

حَطَّمْتَ أَقـدارَ الرِّجـالِ بِخِسَّـةٍ وجَعلتهـم سِـلَعًا تُبـاعُ وتُشْـتَرَى

فأتاك مَـن يَسـعَى لإفـكِكَ جاثيـا مُتخـاذلاً مُسـتجديًا مُسـتَوْزِرا

مِـن كُـلِّ إمَّعـةٍ غَبِــيٍّ جـاهلٍ يَتلُـو تَواريـخَ الرِّجـالِ مُـزَوِّرا

ويقولُ ما تهوَى وينطِـقُ مـا تـرى كالبَبَّغـاءِ مُـردِّدًا ومُكـرِّرا

مَن باعَ فى سُـوقِ الـنِّفاقِ ضَميـرَه وَمَشَـى على الذَّهَـبِ الذَّليلِ مُبَختَرا

فوصف الزعيم بأنه كالطاعون، والطوفان، والزلزال المدمر، ورماه بالخسة، وأما من يحيطون بـه فهـم: المتخـاذل، والمسـتجدى، والمسـتوزر، والإمَّعـة والغبـى، والجـاهل، والببغـاء، والمنـافق، وبـائع ضميره. وفـى ذلـك مزيـد الشـدة والإقـذاع، وجنـوح عـن جـادة الصواب، وإبراز لموقف شخصى بالغ السواد، ولجاجة فى الخصومة

إلى مدى بعيد. واشتط الشاعر فى غلوائه، فوصف يوم ميلاد الزعيم بأنه يوم تعطلت فيه سنن السماء، فولد الخراب الذى تهللت له الأبالسة :

يا ليت أمَّكَ لم تَكُن أو لَيْتَها ... ثَكَلَتْكَ يَومَ وُلِدْتَ يَومًا أغْبَرا

يَومًا غَفَت فيه السماءُ وأسْلَمَتْ ... للنومِ عَينيها، وداعَبَها الكَرَى

إبليسُ فيه دَعا الأبالِسَ كُلَّها ... واختالَ فى زَهْوٍ وصاحَ مُبَشِّرا

اليومَ قَدْ وُلِد الخَرابُ فَهَلِّلُوا ... وخَبَا الضِّياءُ، وفى الظَلامِ تَعَثَّرا

مِن عَهْدِ آدمَ كُنتُ أرجو أن أرَى ... شَبَحًا يَجيء مُخرِّبًا ومُدَمِّرا

يا قَوْمَ إبليسَ اسجدوا لخليفتى ... مَن جاءَ بالخَدِّ الصَّفيقِ مُصَعِّرا

فأتيتَ آيتُكَ النِّفاقُ كَذَبْتَ إذْ ... حَدَّثْتَ ... بَصَّاقَ الكلامِ مُنَفِّرا

وإذا وَعَدْتَ أو ائْتُمِنْتَ فَغادِرٌ ... اللؤمُ طَبعُكَ أن تَخونَ وتَغْدُرا

فاستكمل صفاته للزعيم بأنه الخراب، والمخرب، والمدمر، ومصعِّر الخد الصفيق، والمنافق، وبصاق الكلام، والغادر واللئيم، والخائن. وقرن ذلك بصورة مُضحكة مبكية ليوم مولده، فجعله يومًا نامت فيه السماء عن يقظتها، فنشط إبليس ودعا الأبالس كلها إلى اجتماع عاجل، ووقف فيهم خطيبًا يملأه الزهو، فبشرهم بميلاد الخراب وتحقق الحلم الأبدى القديم منذ خلق آدم، بأن يولد بشر يتولى مهمة إبليس على الأرض فينشر التدمير والخراب، وأمر

الأبالسة بأن يسجدوا لخليقته الصفيق المتكبر، فعم الظلام وخبا الضياء، وجاء الزعيم إلى الأرض آيته النفاق والكذب والغدر والخيانة.

وهذه صورة ساخرة مريرة تعبر عن حقد دفين، وإبراهيم طلعت ذكر لى أنه كان قريبًا من عبد الناصر فى أول الثورة، وأنه رُشِّح للوزارة التى لم تأتِ لسبب غير معلوم، لكنه اعتقل بعد ذلك غير مرة بسبب جموحه وعدم ملاينته، لكن يبقى السؤال: كيف بلغ الشاعر هذه الدرجة من الغضب الأسود الذى حجب عنه كل لون غير ذلك ؟ لقد اشتغل الشاعر بالسياسة منذ صباه، وكان أحد شباب حزب الوفد اللامعين قبل الثورة، واختلف مع الوفد وعاد إليه، ثم اختلف معه وعاد إليه، وبعد أن عاد حزب الوفد الجديد إلى الظهور فى ظل التعددية السياسية فى أيام حكم الرئيس السادات، انضم الشاعر إلى الحزب وتحمس له، ثم ما لبث أن خرج عليه، وفى ذلك ما يدل على جانب من طبيعة الشاعر، كما يشير إلى جانب من شكل علاقة الشاعر بالكيانات والأنظمة السياسية.

ويلتفت الشاعر إلى شعبه الأبى الذى طالت معاناته فى ظل هذا الحكم، ويمس بعض ما لاقاه الوطن من ويل وثبور، فيقول :

يا أيها الشَّعبُ الصَّبور على الأذَى   قَدَرٌ دَهاكَ صَبرْتَ أم لم تَصبِرا
يَبدو أساكَ وإن كَتَمْتَ شُواظَهُ   وَبُكااكَ إنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أو جَرَى
حِجَجٌ خَلَوْنَ تَعيشُ في السِّجْنِ الكبيـ   ـرِ مُحَطَّمًا ومُسَيَّرًا ومُخَدَّرا
يا ليت جُدرانَ السُّجونِ تَحدَّثَت   تَتْلو على الأسماعِ ما كانت تَرَى
كيفَ النِّساءُ هُتِكْنَ في حُجراتها   وَيْحَ النِّساءِ إذا لَقِينَ العَسكَرا
الحُرُّ سِيقَ إلى الجَحيم مُكَبَّلاً   يَصْلَى لَظَى التَعذيبِ حَتَّى يُقْهَرا
والتافِه الصُّعلوكُ يَنْفُثُ حِقْدَهُ   وَيَدوسُ بالطُّغيان أعناقَ الوَرَى
اللـه لولا لُطْفُهُ بِعِبادِهِ   في مِصْرَ كانت مِصْرُ وُسِّدَت الثَّرَى

فالشعب صبور على الأذى لأنه لا يملك غير ذلك، فالمصيبة أعظم من أن تردها قدرته، لذا فإن أساه أقوى من جدران الكتمان، وبكاه أشد من التجمُّل والتصبر، بسبب ما لاقاه هذا الشعب لسنوات طويلة فى سجنه الكبير، وليس أقسى من أن يكون الوطنُ سجنًا كبيرًا فيه القيود والسدود والسجان والتعذيب، ويصرح الشاعر بأن أبناء الشعب داخل هذا السجن الكبير قد انقسموا إلى ثلاثة : أولها المحطمون، وهم الذين عمد النظام إلى التنكيل بهم فى بطش شديد حتى أحالهم حطامًا لا يستجمع قواه

ولا يقوى على شيء، وثانيها المسيَّرون الذين لا يملكون الخروج عن المحاذير والخطوط الحمراء الكثيرة التى وضعها النظام ولاحقتهم ويلاته فخضعوا رغمًا عنهم، وثالثها المخدرون، الذين خدعوا فى الزعيم وأقواله وصدقوا أبواقه ووسائل دعايته، فأصابتهم البلادة والرغبة فى التصديق وعدم النزوع إلى الفعل.

ويمس الشاعر بعض جوانب الواقع الأليم، فيتمنى لو تحدثت جدران السجون بما رأت وسمعت مما وقع للمصريين فى هذا العهد البغيض، حيث كانت تهتك النساء ويساق الأحرار إلى جحيم العذاب الذى لا يدعهم حتى يخروا حطامًا، فى حين يمضى الزعيم فى حقده وصلفه، ويستكمل الشاعر نعوته لعبد الناصر، فيصفه بالتافه والصعلوك والحاقد والطاغية، فلولا لطف الله لهلكت مصر.

وتغلب على الشاعر نزعته الوطنية، وحبه الشديد لوطنه، فيستنكر ما يقع بهذا الوطن الأبى، ويتعجب مما يرى وكأنه غير مصدِّق، ويشفق على وطنه مما حل به، وما هو فيه، فيقول :

أرضَ الكِنانةِ ما دَهاكِ، وما الذى جعل المهرِّجَ فيك يُصبِحُ قيصرا

يا مِصر حاشاكِ العُقوقُ، وإنما أرأيتِ كيف الذِئبُ صار غَضَنْفَرا

ما أتعسَ النسرَ الجَريحَ وقد رأى ... عَلْياءَه فيها البغاث استَنْسَرا

وأنا الذى سَئمَ الحياةَ، لأننى ... لا الصَّحْوُ يُنسينى هَواكِ ولا الكَرى

ومن التعاسة أن أعيشَ لكى أرى ... وَجْهُ الحَبيبة بالتُّرابِ مُعَفَّرا

فَزَجَرْتُ دَمْعى أن يَسيلَ وإنَّما ... عَبَراتُه تَخِذَتْ فُؤادى مِحْجَرا

وكَظَمْتُ فى نَفْسى المَرارةَ والأسَى ... خَوْفَ الملام وفى الحَشا ما لا يُرى

وهذه النغمة الهادئة التى تغمرها عاطفة جياشة، وتعلق شديد بالوطن المحبوب، بلغ بالشاعر حد أن يسأم الحياة التى لا تريه وجه حبيبته على الصورة التى يحب، فلا يملك إلا أن يحبس دموعه الجياشة، ويكظم مرارته وأساه حتى لا يبدو ضعيفًا، وهى التى جبلته على القوة والشموخ، لذا تعاوده الثورة والقوة، ويلتفت إليها مذكرًا ببعض ماها، فجعلها متميزة على العالمين :

وَطن العَراقةِ والأصالةِ والحضـ ... ـارةِ والكرامةِ والضيافةِ والقرَى

أين العراقة والأصالة والحضـ ... ـارة والكرامةِ والضيافةِ والقرَى

هى لم تَزَلْ فى الأرضِ كل جذورها ... وفُروعها كالأمس باسِقَةَ الذُّرَى

إنْ كانَ أخفاها الظَلامُ هُنَيْهةً ... سَتعود بعدَ الفَجْرِ أبْهَى مَنْظَرا

لا تَحْزَنى، إنَّ الذى قاسَيْتِهِ ... قَدْ كانَ مَكتوبًا عَليكِ مُسَطَّرا

وَغدًا سَتلتَئِمُ الجِراحُ، وكُلُّنا ... للثأرِ نَحيا ... عَهدُنا أنْ نَثْأرا

ففى هذه المَقطوعة لم يتعرض الشاعر لشخص الزعيم وإن كان قد وصف عهده بالظلام، بخلاف المقطوعة السابقة -مثلاً- التى وصفه فيها بالمهرج، والقيصر، والذئب. لكنه عمد إلى استنفار همة الأمة للثورة، فمصر وطن العراقة والأصالة والحضارة والكرامة والضيافة والقرى، وهذه جميعًا أقوى من أن تزول، فجذورها ضاربة فى أعماق الأرض، وفروعها باسقة الذُّرَى. وهى جميعًا أقوى من كل طاغية، وأشمخ من كل فترات الزمان. وهيهات أن يحجبها ظلامٌ أو عدوان، لذا كانت الثورة حتمًا على أبناء هذا الوطن العظيم كى تشرق الشمس من جديد، وتلتئم الجراح.

ولا يعنبنا من هذه القصيدة الشهيرة ذائعة الصيت، إلا أن نستدل بها على موقف الشاعر من عبد الناصر، اختلافًا مع سياساته وقراراته، ورفضًا لأسلوب حكمه. وحيث إن الشاعر لا يملك السلطة ولا السجون والتعذيب أو أجهزة الإعلام، وإنما يملك الكلمة، فقد سخرها ضد عدوه وغريمه، فسخر منه وسبَّه، ورفضه قبل أن يرفض سياساته.

فكانت الكلمة سلاحًا شعبيًا ضد نظام حكم بغيض؛ لكنها كانت سلاح المبدعين والمثقفين، أما العامة فكانت الكلمة أيضًا سلاحهم على نحو آخر هو النكتة، وكان لها أيضًا أثر شديد.

لقد اختلف مع عبد الناصر قطاع من جماهير الشعب، و لم يكن سبب هذا الاختلاف واحدًا بل غير واحد، وأيضًا لم تقع القطيعة التى بلغت حد العداء بين الأطراف فى وقت واحد وإن كانت قد تجسدت بشكل واضح قبل نهاية حكمه، وإنما تراكمت ألوان القطيعة والخلاف مع تطور الأيام وتتالى القرارات والسياسات؛ ولذا فقد رأيت هذا جميعًا يندرج فى الموقف السياسى، ولقد عمدت إلى إبراز جانب المعارضة أو الرفض والعداء لأنه الجانب الغامض من هذه المرحلة، و لم أعمد إلى إبراز جانب التأييد والمبايعة؛ لأنه كان الجانب الأظهر فى حياتنا، كما أنه فى جملته يندرج ضمن الفصلين السابقين، وهما: عبد الناصر الأسطورة، وعبد الناصر السائر.

هوامش الفصل الثالث

---

(١) كان طالبًا فى كلية دار العلوم، وكتب عددًا من القصائد الحادة ضد عبد الناصر ورجاله ونظامه لم ينشر أكثرها. وقتل بطعنة خنجر وهو يلعب الكرة مع رفاقه.

(٢) يحفظ هذين البيتين عدد من أهل الأدب، وقد سمعتهما من غير واحد، منهم الدكتور عبد الصبور شاهين.

(٣) السابق.

(٤) نشرها الشاعر فى ديوان "الناس فى بلادى" وذكر أنها ضد الاستعمار وأعوانه. لكنه قال لأصدقائه إنها ضد عبد الناصر. وبعد سنوات أكد ذلك الأستاذ أنيس منصور فى كتابه (عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا).

(٥) صلاح عبد الصبور، ديوان الناس فى بلادى، ص ٢٩.

(٦) أحمد عبد المعطى حجازى، ديوان مدينة بلا قلب، ص ١٨.

(٧) صلاح عبد الصبور، ديوان أقول لكم، ص ٧.

(٨) السابق، ص ٧٠.

(٩) محمد مهران السيد، ديوان بدلاً من الكذب، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٢٧.

(١٠) أمل دنقل، ديوان البكاء بين يدى زرقاء اليمامة، مدبولى، القاهرة، ١٩٦٨.

(١١) جريدة الأهرام فى ٨ / ٤ / ١٩٦٦.

(١٢) مجلة المصور فى ٢١ / ١ / ١٩٦٦.

(١٣) مجلة المصور فى ٢٢ / ٥ / ١٩٦٤.

(١٤) جريدة الجمهورية فى ٣١ / ٣ / ١٩٦٦.

(١٥) البكاء بين يدى زرقاء اليمامة، ص ١١٢.

(١٦) حسين عرب، الأعمال الكاملة، الجزء الأول، ص ٨٤.

(١٧) السابق.

(١٨) ذكر لى هذه الأبيات الكاتب الأستاذ أحمد رائف.

(١٩) شاعر سكندرى لمع فى الثلاثينيات من هذا القرن، وأصدر خمسة دواوين، واشتهر بلقب العندليب، وعمل بالمحاماة، واشتغل بالسياسة، واعتقل مرات كثيرة.

(٢٠) مخطوط بمكتبتى.

(٢١) حامد نفادى، ديوان امرأة فى محنة، ص ٣٨.

(٢٢) شاعر قاهرى ربطته صلات بأدباء الإسكندرية الكبار، وكان أحد ضحايا المرحلة الناصرية.

(٢٣) مخطوط بمكتبتى.

(٢٤) مقدمة القصيدة بقلم إبراهيم طلعت، مخطوط بمكتبتى.

(٢٥) السابق.

(٢٦) القصيدة كاملة تقع فى أربعة وستين بيتًا فى مخطوط بمكتبتى.

ملحق فى أشهر القصائد
فـــى
عبـــد النــاصــر

جمال عبد الناصر

للشاعر : نزار قبانى

(١)

قتلناك.. يا آخر الأنبياء

قتلناك

ليس جديدًا علينا

اغتيال الصحابة والأولياء

فكم من رسول قتلنا..

وكم من إمامٍ

ذبحناه وهو يصلى صلاة العشاء

فتاريخنا كله محنةٌ

وأيَّامُنا كلها كربلاءْ

(٢)

نزلت علينا كتابًا جميلا

ولكننا لا نجيد القراءَهْ

وسافرتَ فينا لأرض البراءَهْ

ولكننا.. ما قبلنا الرحيلا

تركناك فى شمس سيناء وحدكْ

تُكلِّمُ ربَّك فى الطور وحدك

وتعرى..

وتشقى..

وتعطشُ وحدكْ..

ونحن هنا.. نجلسُ القُرفُصَاء

نبيع الشعارات للأغنبياءْ

ونحشو الجماهير تبنًا وقشًا

ونتركهم يعلكونَ الهواء..

(٣)

قتلناكَ..

يا جبل الكبرياء

وآخر قنديل زيتٍ

يضيء لنا في ليالى الشتاء

وآخر سيف من القادسيهْ

قتلناك نحن بكلتا يدينا

وقتلنا الثّورةْ..

لماذا قبلت المجيء إلينا ؟

فمثلك كان كثيرًا علينا..

سقيناك سُم العروبة حتى شبعت

رميناك في نار عمَّان.. حتى احترقت

أريناك غدر العروبة حتى كفرت

لماذا ظهرت بأرض النفاق..

لماذا ظهرت ؟

فنحن شعوب من الجاهليةً..

ونحن التقلبُ

نحن التذبذبُ

والباطنيّة

نبايع أربابنا فى الصباح

ونأكلهم حين تأتى العشيّهْ..

(٤)

قتلناك

يا حبُنا وهَوَانا..

وكنتَ الصديقَ، وكنتَ الصَّدوق

وكنتَ أبانا..

وحين غسلنا يدينا.. اكتشفنا

بأنَّا قتلنا مُنانا..

وأن دماءك فوق الوسادة

كانت دمانا

***

نفضتَ غُبار الدراويش عناَّ

أعدت إلينا صبانا

وسافرت فينا إلى المستحيل

وعلَّمتنا الزهو والعنفُوانا..

ولكننا..

حين طال المسير علينا

وطالت أظافرنا.. ولحانا

قتلنا الحصانا..

فتبَّت يدانا..

فتبت يدانا..

***

أتينا إليكَ- بعاهاتنا

وأحقادنا.. وانحرافاتنا..

إلى أن ذبحناك ذبحًا

بسيف أسانا..

فليتك فى أرضنا ما ظهرت

وليتك كنت نبيًّ سوانا..

(٥)

أبا خالد.. يا قصيدة شعرٍ..

تقُال

فيخضرُ منها المدادْ

إلى أينَ ؟

يا فارس الحلم تمضى..

وما الشوطُ.. حين يموت الجوادْ ؟

إلى أين ؟

كل الأساطير ماتتْ

بموتكَ.. وانتحرت شهرزادْ

***

وراء الجنازة... سارت قريشُ

فهذا هشامٌ

وهذا زيادْ..

وهذا يُريقُ الدموعَ عليكْ

وخنْجَرُهُ، تحت ثوب الحدادْ

وهذا يجاهدُ في نومه

وفي الصحو..

يبكي عليه الجهاد..

وهذا يحاول بعدك مُلكاً..

وبعْدَكَ..

كل الملوك رمادْ..

***

وفود الخوارج.. جاءتْ جميعًا

لتنظم فيكَ..

ملاحمَ عشقْ..

فمن كفّروكَ..

ومن خَوّنُوكَ..

ومن صلبوكَ بباب دمشق..

***

أنادى عليك.. أبا خالد

وأعرف أنى أنادى بوادْ

وأعرف أنّك لن تستجيبَ

وأن الخوارقَ ليستْ تُعاد..

رسالة إلى جمال عبد الناصر

للشاعر : نزار قباني

(١)

والدنا جمالَ عبد الناصر :

عندى خطابٌ عاجل إليكْ..

من أرض مصرَ الطيبةْ

من ليلها المشغول بالفيروز والجواهرِ

ومن مقاهى سيدى الحسين، من حدائق القناطر

من تُرع النيل التى تركتها..

حزينة الضفائر..

عندى خطابٌ عاجلٌ إليك

من الملايين التى أدمنت هواك

من الملايين التى تريد أن تراك

عندى خطابٌ كله أشجان..

لكنّنى

لكننى يا سيِّدى

لا أعرف العنوان..

والدنا جمالَ عبد الناصر :

الزرع فى الغيطان، والأولادُ فى البَلَدْ

ومولدَ النبىِّ، والمآذن الزرقاء

والأجراسُ في يوم الأحَدْ

وهذه القاهرةُ التى غفتْ..

كزهرة بيضاء.. فى شعر الأبَدْ..

يُسلِّمُون كلُّهم عليكْ

يقبِّلُون كلهم يديكْ..

ويسألونَ عنك كلَّ قادمٍ إلى البلد

متى تعودُ للبلدْ ؟ ..

(٣)

حمائمُ الأزهرِ يا حبيبناَ... تهدى لك السلامْ

مُعَدِّياتُ النيل يا حبيبنا... تهدى لك السلام..

والقطنُ فى الحقول، والنخيلُ، والغمامْ..

جميعهُا.. جميعهُا.. تُهدى لكَ السلام..

كُرسيُك المهجور... فى منشية البكرىِّ..

يبكى فارسَ الأحلامْ..

والصبرُ لا صبر له.. والنومُ لا ينامْ.

وساعةُ الجدار... من ذهولها..

ضيعَّتِ الأيَّامْ..

يا من سكنتَ الوقتَ والأيامْ

عندى خطابٌ عاجلٌ إليكْ..

لكنّنى..

لكنى يا سيدى.. لا أجد الكلامْ...

لا أجد الكلامْ..

(٤)

والدنا جمالَ عبد الناصر :

الحزنُ مرسومٌ على الغيوم، والأشجار، والستائِر

وأنت سافرتَ، ولم تسافر..

فأنت في رائحة الأرض، وفي تفتح الأزاهر..

في صوت كلْ موجةٍ، وصوت كل طائر

في كتُب الأطفال، في الحروف، والدفاتر

في خضرة العيون، وارتعاشة الأساور..

في صدر كل مؤمنٍ، وسيف كل ثائر..

عندى خطابٌ عاجلٌ إليكْ..

لكننى..

لكننى يا سيدى..

تسحقنى مشاعرى..

(٥)

يا أيها المعلمُ الكبيرْ

كم حزننا كبير..

كم جرحنا كبير

لكننا..

نقسم باللّه العليّ القديرْ

أن نحبسَ الدموعَ في الأحداقْ..

ونخنق العبرة..

نقسم با لله العلّي القديرْ

أن نحفظ الميثاق

ونحفظ الثورهْ..

وعندما يسألنا أولادنا

من أنتُم ؟

في أي عصر عشتمُ..

في عصر أى ملهم ؟

في عصر أى ساحر ؟

نجيبهم : في عصر عبد الناصر..

اللَّه.. ما أروعها شهادةً

أن يوجد الإنسان في زمان عبد الناصر..

الهرم الرابع

للشاعر : نزار قباني

(١)

السيدُ نام

السيد نام

السيد نام كنوم السيف العائِد منْ إحدى

الغَزَواتْ

لسيد يرقدُ مثل الطفل الغافي... في حضُن

الغابات

السيد نامَ

وكيف أصدِّق أنَّ الهرَم الرابعَ مات ؟

القائد لم يذهب أبدًا..

بل دخل الغرفة كي يرتاحْ

وسيصحو... حين تُطل الشمسُ

كما يصحو عطرُ التفّاحْ

الخبز سيأكله معنا..

وسيشرب قهوته معنا..

ونقولُ لهُ..

ويقولُ لنا..

القائد يشعُر بالإرهاق..

فخلّوه يغفو ساعات..

(٢)

يا مَنْ تبكونَ على ناصرْ..

السيدُ كان صديق الشمس..

فكفّوا عن سَكْب العبرات..

السيد مازال هنا..

يتمشّى فوق جسور النيل..

ويجلس في ظل النخلاتْ..

ويزور الجيزةَ عند الفجر...

ليلْثُمَ حجر الأهرامات

يسألُ عن مصرَ... ومَنْ فى مِصْرَ..

ويسقى أزهار الشُرُفاتْ..

ويصلى الجمعة... والعيدين..

ويقضى للناس الحاجات..

مازال هنا عبد الناصر..

فى طمْى النيل، وزهر القطن..

وفى أطواق الفلاحات..

فى فَرَحِ الشعب..

وحزن الشعب..

وفى الأمثال، وفى الكلمات...

مازال هنا عبد الناصرْ.

من قال الهرمُ الرابعُ ماتْ ؟

(٣)

يا مَنْ يتساءل : اين مضى عبد الناصر ؟

يا من يتساءلُ :

هل يأتي عبدُ الناصرْ..

السَّيدُ موجود فينا..

موجود فى أرغفة الخبز..

وفى أزهار أوانينا..

مرسومٌ فوق نجوم الصيف،

وفوق رمال شواطينا..

موجودٌ فى أوراق المصحف..

فى صَلَوات مصلّينا..

موجودٌ فى كلمات الحبِّ..

وفى أصوات مُغنِّينا..

موجودٌ فى عرق العُمَّالِ..

وفى أسوانَ... وفى سينا..

مكتوبٌ فوق بنادقنا..

مكتوب فوق تحدينا..

السيد نام... وإن رجعتْ

أسرابُ الطير... سيأتينا..

عودة ذى الوجه الكئيب

للشاعر : صلاح عبد الصبور

هل عاد ذو الوجه الكئيب ؟

ذو النظرة البكماء والأنف المقوس والندوب

هل عاد ذو الظفر الخضيب

ذو المشية التياهة الخيلاء تنقر فى الدروب

لحنا من الإذلال والكذب المرقش والنعيب

ومدينتى معقودة الزنار

عمياء ترقص فى الظلام

ويصفر الرجال والقواد والقراد والحاوى الطروب

فى عرس ذى الوجه الكئيب

***

من أين جاء ؟

ويقول سادتنا الأماجد حين يزورون الجبين

شأن الثقاة العارفين

من السماء..

من أين جاء ؟

ويظل أهل الفضل فينا حائرين

ويتمتمون على مسابحهم وهم يتلاغطون

هذا ابتلاء ا لله ! ! هذا من تدابير القضاء

من أين جاء ؟

ويقول أصحابى وهم كالزعزع النكباء قوة

العزم يلمع فى عيونهم. وتجرى في عروقهم الفتوة

من الجحيم

وكيف جاء ؟

***

هذا "أبو الهول" المخيف

نصب السرداق عند باب مدينتى للقادمين

وللعائدين

والهاربين إلى القضاء

والوالجين إلى البناء

لا.. لم يدع أحدًا...

إلا وألقى دونه هذا السؤال

من خالق الدنيا ؟

الملتحون تهللوا ، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض :

ا لله خالقها... وهذا لايصح به سؤال.

وعوى أبو الهول المخيف، وقلّب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورمى بجمع الملتحين إلى الدمار

والأمردون تأملوا ، وأجاب رائدهم بصوت مستفيض :

لا نستطيع ! ! بل نحن نعرف ! ! إنه قدم الطبيعة.

وعوى أبو الهول المخيف، وقلّب الوجه الكئيب إلى اليسار

ورمى بجميع الأمردين إلى الدمار

وتقدم الدجال والقواد والقراد والحاوى الطروب

وتضعضعوا، قالوا معانك! أنت خالقها، أجل..

أنت الزمان

أنت المكان

أنت الذى كان

أنت الذى سيكون فى آتى الأوان

وعوى أبو الهول المخيف وقلّب الوجه الكئيب إلى اليمين

وأشار، ثم تواثبوا فوق الأرائك جالسين

***

سيظل ذو الوجه الكئيب وأنفه ونيوبه

وخطاه تنقر فى حوائطنا الخراب

إلا إذا

إلا إذا مات

سيموت ذو الوجه الكئيب

سيموت مختنقاً بما يلقيه من عفن على وجه السماء

في ذلك اليوم الحبيب

ومدينتي معقودة الزنار مبصرة سترقص في الضياء

في موت ذي الوجه الكئيب

أغنية إلى عبد الناصر

للشاعر : محمد إبراهيم أبو سنة

يا حب بلادى الأول

تبحر فى عينيك الآمال

تبدأ رحلتها

بين خمائل هذا الحب الأجيال

فى مصر العليا

يخفق قلبك

فى الأغنية الصخرية

فوق جواد مندفع أبيض

فى أحجار السد

يخفق قلبك

فى مدن الدلتا

فى الأبنية الطينية

فى المدخنة المرتفعة

تشتعل حماسًا

يخفق قلبك

تحت ثياب الريفى المجهد

يعرف سر العالم

فى بضعة أغنام

يخفق قلبك

تحت ثياب العرس

يخفق قلبك

فوق مناديل العشاق

يخفق قلبك

فى مدن الساحل

يخفق قلبك

فى السفن التائهة بأعلى البحر

في الأغنية العذراء

تنشدها راعية بدوية

في بهجة حقل

تتدفق فيه مياه الصيف

يخفق قلبك

فوق الأعلام المرتفعة

في قوس القمر المولود على ظهر الغيم

يخفق قلبك

في ساعات العشاق

قرب الموعد

يخفق قلبك

في كل نبات الشاطيء

عبر الجسد الأخضر

في عيني مصر

يخفق قلبك

فوق منارات البحر

فوق الأبراج

فى الكهف الغلق فى الصحراء

يخفق قلبك

فى الحكمة ينشدها شاعر

يخفق قلبك

فى مأتم طفل

فوق سرير مريض

يخفق قلبك

فى الريح الخارجة من الأنهار

فى الضوء الضاحك فى الأزهار

يخفق قلبك

فى أدغال الصمت

في أعراس الكلمات

في كل فؤاد يبنى بيتاً للحب

يخفق قلبك

لكنى يا حب بلادى الأول

أسمع في قلبك

خفق فؤاد حبيبتك الساهرة على ضفة نهر

في قلبك تخفق مصر

الليلة الحزينة

للشاعر : محمد عبد المنعم الأنصارى

كنا نعود إلى البيوت يشدنا
أمل.. وإن كان المساء حزينًا

لم ندفن الشهداء بعد.. ولم تزل
عمان جرحًا نافرًا.. وأنينًا

نستطلع الأنباء.. فى قلق ثوى
كالجمر ما بين الضلوع دفينا

وجلست بين الجالسين.. لعلنا
نلقى لدى الأنباء ما يشفينا

لكن لدى الأنباء أى فجيعة
راحت لهول جنوننا.. تلقينا

أصغيت للنبأ الرهيب،وغصت فى
موج الذهول على الأريكة حينًا

ثم انتبهت إلى الجموع.. وكلنا
يستمهل الشك المعذب فينا

فعسى تعود لك الحياة.. وربما
بالمعجزات عليك ليس ضنينًا

أو لست معجزة السماء ؟ وأننا
متنا وكنت أتيت كى تحيينا

لكنما لله أى مشيئة ؟
نفذت.. وصار الشك فيك يقينا

عودتنا ألا تفكر حينًا
فى الأمر.. حتى كاد لا يعنينا

وحملت أعباء الحياة..جميعها
عنا.. وسرت بها كما يرضينا

وسـألت.. أعطينـاك دون تـردد   أغلى الذى قد كان فى أيدينا
فزرعتـه فـى تربـة.. معطـاءة   ونما نماء الحب فى وادينا
ورحلـت عنـا فجـأة.. وتركتنـا   من يا ترى من بأسنا يحمينا؟

عمّان كانت يـا جمـال.. بدايـة   تستنهض الحـزن المخبّأ فينـا
من بعد مـا كنـا نسـينا طعمـه   زمناً.. ولا عجـب أقول نسينا
فلأنـت قـد علّمتنـا ألا نطـأ   طىء رأسنا للحـزن كـى يطوينا
لكنـه بـالأمس عـاد.. كأنمـا   يلقـى بكـل حشاشـة سـكينا
الحـزن مـن (عمّان) لا يبقى على   شـىء نلـوذ بـه.. ولا يبقينـا
إلاك تتجـه القلـوب إليـك فـى   حمى صراع كنت فيه رزينا
حتى انتصرت على المنن بجولة   وبجولة أخرى سقطت طعينا
فسـقطت أروع مـا يكـون بسـالة   يا روعة الحزن الهيب.. خذينا
طوفى بنا بـين المدائـن والقـرى   لنهيم تحـت سمائهـا.. باكينا
نبكيك يـا غدنـا وحاضرنـا ويـا   نـوراً إلى أمجادنـا.. يهدينـا
إن البكـاء يريحنـا.. لكنـه   هيهـات مـن آلامنـا يشـفينا

الرئيس

للشاعرة : عفيفة الحصني

آمنت أن الله أرسل ناصرا ... للعرب يجمع شملهم ويعلم

آمنت بمنطقك الكريم مقدسا ... لرسالة تهدي الورى وتقوّم

لما رأيتك يا جمال مناصرا ... شعبا تقضى أعماره يتألم

آمنت أنك من شهاب محمد ... كشف الضلال عن الأنام فأسلموا

قتل الخطاب الألمعي انجلترا ... فاستنجد الأسد العجوز الأعجم

صيحات شعبٍ أرهبت أعداءنا ... فتحيروا وتعثروا وتظلموا

نبرات سحر أثملتني في الدجى ... فمضت تنافسني العلاء الأنجم

وأخذت أصغي للخطاب بلهفة ... ونياط قلبي شدّها المتكلم

وأعانق المذياع ناقل صوته ... وأضمه وسط الظلام وألثم

أصغي وتغشاني الدموع فلا أرى ... إلا جمالا في الحشود يسلّم

حتى استعرت جناح طير خافق ... وسعيت نحو العبقري أحوّم

وودت لو أفني عدوّ نضالنا ... كلّ العدو أبيدهم وأقلّم

يا صانع التاريخ يـا خـير الـورى | يا أيها الرجـل العظيمـم الملهـم
أحييت فى الترب المخضّل بالدمـا | شهداء عرب فاستغاث المجـرم
أنعشت فـى سـجن الشـآم بواسـلا | كسروا قيودهم الثقـال وأقدمـوا
ألهبت فـى دنيـا العروبـة أنفسـا | غذى جوارحها الخطاب المفعـم
تسعون مليونـا يـرون مصـيرهم | شمسا تضـىء وكوكبـا يبتسـم
فى ركب عملاق الجهاد يقودهم | ليطـاولوا الجـوزاء إذ يـتزعم

دم للشعب

للشاعر : صلاح جودت

قم واسمعها من أعماقى   فأنا الشعب

ابـق فأنت السد الواقى   لمنى الشعب

ابق فأنت الأمل الباقى   لغد الشعب

****

أنت الخير وأنت النور

أنت الصبر على المقـدور

أنـــت الناصـر والمنصور

فابق أنت حبيب الشعب

دم الشعب

***

قـــم إنا جففنا الدمعا   وتبسمنا

قم إنا أرهفنا السمعا   وتعلمنـا

قـم إنا وحدنا الجمعـا وتقدمنا

قم للشـعب وبدد يأسـه

واذكر غده واطرح أمـه

قم وادفعنا بعد النكسة

وارفع هامة هذا الشعب

دم للشعب

قـم للشعب وقل للنـاس قـل للعصر

فوق الجرح وفوق اليـأس عاشت مصر

وغدا ستحيىّ الأجـراس يـوم النصر

قـم إنـا أعددنـا العـده

قـم إنـا أعلينـا الوحـده

فارست أنت طريق العوده

وتقـدم يتبعـك الشـعب

دم للشعب

الفهرس

من إصدارات المؤلف

١. اتجاهات الشعر السكندرى.

٢. خليل شيبوب رائد التجديد الشعرى.

٣. أناشيد الرافعى – دراسة فنية.

٤. النقد الأدبى الحديث.

٥. فى أدب الأطفال.

٦. أثر النكسة فى الشعر العربى.

٧. نحو تنظير نقدى للأدب الإسلامى الحديث.

٨. حسن توفيق العدل – رائد الدراسة الأدبية الحديثة.

٩. تغريبة بنى حتحوت – بين السيرة الشعبية والرواية التاريخية.

١٠. الإرهاب المقدس – تقديم وتعريب.

١١. الشعر العربى الحديث.

رقم الإيداع ٩٠٦٢ / ٩٨

الترقيم الدولى 977-19-6398-8

هذا الكتاب

أول دراسة فى الأدب العربى ترسم ملامح شخصية عبد الناصر بأقلام الشعراء الذين اختلفت نظراتهم إلى هذه الشخصية العظيمة، فمنهم من رآه أسطورة فى شخصه وحركاته وسكناته ومواقفه وقراراته، ومنهم من رآه ثائرًا عظيمًا حرك سواكن النفوس وأشعل فيها جذوة الثورة التى امتد نطاقها واتسعت امداؤها فصار عبد الناصر زعيمًا للثورة العالمية، ومنهم أيضًا من رآه رئيس جمهورية لهم كل الحق فى الاختلاف مع قراراته وسياساته ...

وبعد .. فهذه دراسة غير مسبوقة تضيف إلى غيرها حقيقة أن عبد الناصر قد شغل مكانًا خاصًا فى قلوبنا وحياتنا.

النـاشـر



716
51
62
06352241